نصف قرن

مع العروبة وقضية فلسطين

أحمد حسين

نصف قرن
مع العروبة وقضية فلسطين

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

الاهداء

الى شيخ المجاهدين في سبيل العروبة
وتحرير فلسطين .

الى الاستاذ محمد علي الطاهر
(ابو الحسن)

اهدي هذا الكتاب .



ليس امامنا بعد ان نشيخ وتدنو نهايتنا الا ان نعيش في الذكريات ونعرضها على الجيل الصاعد ليقف على أصول المشاكل وجذور القضايا التي تتحداه ويتحداها وفي هذا الكتاب سيرى الشباب كيف ان العروبة والدعوة الى اتحاد العرب دعوة قديمة جدا وليست كما يزعم الزاعمون ولدت على يد هذا الشخص أو ذاك ممن ابتليت بهم الامة العربية في فترة من الفترات ، بل لعلها كانت متحدة في ظل الاستعمار باكثر مما اصبحت عليه بعد ان تحررت ، سيرى القارىء كيف انني من نصف قرن ركبت القطار من محطة القاهرة فأوصلني الى حيفا ، ومن حيفا ركبت السيارة التي أوصلتني الى بيروت فدمشق ، ولم احتج طوال الطريق لتبديل عملتي من الجنيهات المصرية ، فقد كانت عملة مقبولة ومتداولة بنفس قيمتها ومادتها (الورقية أو الفضية أو البرونزية) وكيف انني بعد نصف القرن هذا كان علي ان اصل الى بيروت على متن طائرة تطير في السموات العلى لانعدام وجود الطريق الارضي بعد قيام دولة اسرائيل ، وبعد أن أصبح الدخول الى أي قطر عربي يحتاج الى اجراءات وتحويل عملات ، وبعد أن ابتليت البلاد العربية بما هو أقسى من الاستعمار ونعني به اسرائيل . ومن خلال استعراض الذكريات سيرون ان المشاكل هي المشاكل وان القضايا هي القضايا . وكيف أن ما رفضناه في يوم من الايام باعتباره كارثة على فلسطين والعرب ، قد أصبح اليوم حلما من الاحلام ، نتمنى لو أنه كان وصار .

وبعد فاني اكتب لانني لا استطيع الا ان اكتب فكل ميسر لما خلق له فليقرأ الشباب للتسلية اذا اراد وللعظة اذا كان يلتمس العظة . ولتجنب الاخطاء لمن يريد أن يتنكب الاخطاء ولاكمال الناقص ، ومتابعة المسيرة مسيرة الحياة ، لان الحياة لا بد ان تسير ، كما لا بد للارض ان تدور وتشرق الشمس ويموت كل كائن حي .

ولله الحمد والمنة .

جبل لبنان ـ سوق الغرب

١٩٧١/٦/١٨

الفصل الأول

محاولة انشـــاء امبراطورية عربيـــة

في مطلع القـــرن العشرين

الاسباب التي ادت بمصر الى انكـــار هذه الحركة العربية . الوحدة الاسلامية

ولدت في مطلع القرن العشرين في ظل الاحتلال البريطاني ، ولقد كان سلاح المصريين لمقاومة الاحتلال هو التمسك بصلاتهم بتركيا في ظل الاسلام ولذلك فلم ينظر المصريون بعين الرضا الى انضمام الشريف حسين والي مكة الى الحلفاء أو بالاحرى الانجليز في الحرب العالمية الاولى • وكان الانجليز قد اتفقوا مع الشريف حسين عن طريق رجلهم في مصر مكماهون على أن يثور العرب على الاتراك ويؤلفوا جيشا لمحاربة تركيا الى جوار الحلفاء وذلك في مقابل ان يعترف الانجليز باستقلال العرب وحقهم في تكوين دولة اشبه بالامبراطوريات في هذا الزمان تحت زعامة الشريف حسين الذي يصبح ملكا أو بالاحرى امبراطورا على العراق والشام بكل اجزائه (سوريا ولبنان وفلسطين والاردن) والجزيرة العربية بكل اجزائها (الحجاز ونجد وامارات الخليج واليمن) وقد اشتهر الاتفاق بين انجلترا والشريف حسين باسم (حسين مكماهون) وقد كان هذا الاتفاق يعتبر في ذلك الوقت خيانة من وجهة النظر الاسلامية ، ولذلك فقد نظر المصريون اليه شزرا وكانت مصالحهم تتعارض معه اذ كانوا يتوقون لهزيمة انجلترا حتى يستطيعوا التحرر منها ، في الوقت الذي علق فيه عرب المشرق آمالهم على التحرر من تركيا وتأسيس دولة عربية كبرى ، على انتصار الانجليز وهزيمة تركيا • ونفذ الشريف حسين الاتفاق واعلن الثورة على تركيا وجيش جيشا وزحف على المدينة المنورة التي جلا عنها الجيش التركي ، ومن المدينة على سوريا ، في الوقت الذي كان فيه الجنرال اللنبي يدخل القدس ويعلن (انتهاء الحروب الصليبية) ، ولم يفهم العرب في ذلك الوقت مغزى ذلك التصريح •

خيانة انكلترا :

كانت انجلترا في ذلك الوقت تبيع جلد الدب قبل اصطياده لاكثر من جهة ، ففي الوقت الذي كانت تستغل فيه سذاجة العرب واندفاعهم العاطفي فتبرم معهم هذا الاتفاق على تأسيس امبراطورية عربية ، كانت متفقة مع حليفتها الكبرى فرنسا على تقسيم المشرق العربي فيما بينهما فتختص فرنسا بما عرف فيما بعد بسوريا ولبنان (في ذلك الوقت كان يطلق على القطرين ـ بر الشام) وتختص انجلترا بالعراق وفلسطين تاركين للعرب شبه الجزيرة العربية أو بمعنى ادق بلاد الحجاز ليكون الشريف حسين ملكا عليه ، اذ انه في الوقت الذي اتصلوا فيه بالشريف حسين كانوا يجرون اتصالات مع أمير نجد عبد العزيز آل سعود .

وعد بلفور :

ولم يكن اتفاق انجلترا مع فرنسا لتقسيم المشرق العربي هو كل خيانتهم للعرب ، بل انهم في ذات الوقت اتفقوا مع اليهود لانشاء وطن قومي لهم في فلسطين . وانتهت الحرب العالمية الاولى بانتصار انجلترا وحلفائها وانكشف المستور ، فحيث نودي بفيصل ملكا على الشام في دمشق كانت الجيوش الفرنسية تحتل لبنان تنفيذا لاتفاقهم مع الانجليز ، وزحف الفرنسيون لاحتلال دمشق ، والتقى بهم الجيش العربي بقيادة يوسف العظمة عند ميسلون ودارت الدائرة على الجيش العربي ودخل الفرنسيون دمشق . وفي مؤتمر الصلح حاول فيصل ابن الشريف حسين وممثله في المؤتمر انقاذ ما يمكن انقاذه ولكن الامر كان مبيتا ووضع العراق وفلسطين تحت الانتداب البريطاني وسوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي ، وهي صيغة جديدة ابتدعوها ليتحاشوا كلمات الضم والاستعمار . وصرخ الملك حسين بعد أن أصبح ملكا على الحجاز وناشد انجلترا المحافظة على الوعود والعهود ، ولكن الحديث عن الوعود والعهود والشرف والمواثيق هي لغة اختص بها العرب ، وعملة غير متداولة

في السوق الدولية ما لم تدعمها القوة وقد كان احرى بالعرب باعتبار أن أغلبيتهم الساحقة من المسلمين أن يكونوا أول من يفهم ذلك ، فأي حق لا تدعمه القوة ، يكون معلقا في الهواء لا يعدو ان يكون مجرد كلمة خاوية . انه بمثابة الروح في غير جسد فلا يكون لها أي فاعلية ولا تبرز في الحياة ومن هنا كانت دعوة القرآن الكريم للمؤمنين :

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

ومع ذلك فقد اعتاد العرب ولا يزالون لا يتحدثون الا عن العهود والمواثيق ، ويتشدقون بها في المحافل الدولية ، فيسخر منهم كل من يسمعهم لانه حتى الآن لا وزن في العلاقات الدولية الا للمصالح والمصلحة دائما الى جانب الفريق الاقوى والاغنى والانفع . ولذلك فقد خسر العرب قضيتهم في مؤتمر الصلح على ما قدمنا غير ان انجلترا وجدت من مصلحتها ان لا تغاضب العرب كلية فأنشأت في العراق عرشا أجلسوا عليه فيصل ابن الملك حسين ، وسلخوا من فلسطين منطقة شرق الاردن ونصبوا عليها ابنا ثانيا للملك حسين وهو الامير عبدالله الذي اصبح فيما بعد الملك عبدالله .

ولما تزايد صياح الملك حسين وضجيجه في التحدث عن الشرف والعهود والمواثيق التي أبرمتها معه انجلترا تخلوا عنه وتركوه لقدره مع أمير نجد عبد العزيز آل سعود الذي هزمه هزيمة عسكرية منكرة ودخل الى الحجاز فتنازل الملك حسين لابنه علي الذي خاض المعركة الاخيرة في جدة وخسرها ، واستتب الامر لعبد العزيز آل سعود في الجزيرة العربية ، بينما التجأ الملك حسين المخلوع الى جزيرة قبرص تحت كنف اعدائه الانجليز حلفاء الامس .

هذه هي صورة أوضاع العالم العربي في العشرينيات من هذا القرن .

الملك ابن السعود في الحجاز ونجد • الملك يحيى حميد الدين في اليمن[1]•
والملك فيصل في العراق ، والامير عبدالله في شرق الاردن وكلاهما تحت
الوصاية البريطانية ، أما فلسطين (غرب الاردن حتى ساحل البحر) فقد
حكمها الانجليز حكما مباشرا ، كي ينفذوا لليهود ما اتفقوا عليه وهو ان
يهيئوا الظروف والاوضاع التي تجعل من فلسطين وطنا قوميا لليهود
فأنشأوا ما يسمى بالوكالة اليهودية لتتعاون معهم وترسم لهم وتخطط
الخطوات اللازم اتباعها بالتدريج لتهويد البلاد أما فرنسا فقد قسمت الشام
الى سوريا ولبنان وجعلت منهما دولتين مستقلتين واختارت لهما النظام
الجمهوري وكان الحاكم الفعلي في كلتا الدولتين هو ممثل فرنسا •

أما المغرب العربي تونس والجزائر ومراكش ، فقد استقرت فيها
الاوضاع لصالح فرنسا ، وانفردت ليبيا (برقة وطرابلس) بالحكم
الايطالي • وكانت مصر تحت الحماية البريطانية •

هذه هي الاوضاع التي كان عليها العالم العربي من الخليج الى
المحيط وهذا هو المناخ الذي نشأتُ في ظله ، وعشت شبابي في مراحله
الاولى •

(١) لم يلق العثمانيون متاعب في العالم العربي كما لاقوها في اليمن حتى اطلق على اليمن (مقبرة الجيوش العثمانية . فلما ان قامت الحرب ، كان اليمن هو الدولة العربية التي ظلت على ولائها لتركيا .

الفصل الثاني

ثـورة سنة ١٩١٩ في مـصر

الدعوة الى القومية الفرعونية في مصر

الحرب في الريف المغربي ـ أول مشاكل فلسطين ـ

حائط المبكى ـ مؤتمرات من أجل فلسطين ـ

ثورة في سوريا ـ جبل الدروز ـ الدكتور شهبندر

لست في مجال تحليل مقدمات ثورة سنة ١٩١٩ والعوامل التي أدت الى انفجارها فذلك له مجال غير ما نحن بصدده والمهم ان ثورة سنة ١٩١٩ قد اندلعت في مصر لتكون حقا وصدقا مفخرة للشعب المصري في مطلع القرن العشرين ، فقد كانت ثورة شعبية حقا بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى اشترك فيها الفلاحون والعمال والموظفون والمثقفون • ويحار الانسان ان يقول اي هذه الطوائف كان اعجب وأدهش ، اين ذهب الخوف الذي يسيطر على المصريين •• اين ذهب حب السلامة والحرص على معايش الاولاد ، ما هذه الفدائية التي تفشت في مختلف الاوساط ، كل هذه اسئلة لا جواب عليها ، والحقيقة الثابتة ان ثورة سنة ١٩١٩ ادهشت الدنيا ، فقد كانت أول صيحة في وجه انجلترا وقد خرجت سيدة العالم بعد الحرب العالمية الاولى وقد كان لها في مصر أكثر من مائة الف جندي ، فقيام شعب أعزل في وجهها واصراره على مطالبه ، بل ونجاحه في الحصول على بعض هذه المطالب (الافراج عن سعد زغلول بعد نفيه وبعد ذلك الغاء الحماية عن مصر واعلان استقلالها) أقول ان هذا النجاح كان أكبر مشجع لكثير من شعوب العالم المغلوبة على أمرها ان تحاول تغيير مصيرها كما هو الشأن في الهند ، وقد اعترف غاندي بذلك • غير ان أثر ثورة سنة ١٩١٩ سرعان ما ظهر في سوريا حيث قامت ثورة عارمة في جبل الدروز بقيادة سلطان باشا الاطرش وكانت مصر تنتفض انتفاضا بأحداث هذه الثورة ، كما انتفضت قبل ذلك بثورة الامير عبد الكريم الخطابي ضد اسبانيا في المغرب ، ولكن ثورة عبد الكريم كانت ثورة مسلحة اشبه ما تكون بحرب نظامية وقد حصل فيها على انتصارات مذهلة على الجيش الاسباني حتى

اسقط حكوماتها المتعاقبة واصبح عبد الكريم الخطابي مفخرة العرب الى ان تحرشت به فرنسا وجرته الى حربها واستخدمت ضده السلاح التقليدي (فرق تسد) فاشترت القبائل وجعلتها تنفض من حـوله وأخيرا سقط عبد الكريم الخطابي وسقطت معه شعلة من نور اضاءت ظلمات العالم العربي شرقا وغربا حيث كان كله واقعا في براثن الاستعمار وكانت ثورة جبل الدروز في سوريا ، ثاني الحركات الضخمة في سبيل نيل الحرية ، ولكنها لم تلبث ان خبت بدورها ، وأحدث فشلها رد فعله •

على ان مصر كانت مشغولة بنفسها وكانت صيحة مصر للمصريين هي الصيحة الغالبة على ما عداها وقد اعتبر كل من لم يكن مصريا اجنبيا • وثمة حقيقة يجب التنبه لها لاظهار سوء التفاهم الذي حدث في ذلك الوقت بين الشعب المصري وبقية الشعوب العربية ، وقد أشرنا من قبل الى نظرة المصريين شزرا الى ثورة العرب ضد الاتراك باعتبار ان ذلك عمل يضعف جبهة الاسلام ويدعم مركز انجلترا حيث كان المصريون يبغون اضعاف هذا المركز ، وبعد الحرب جد عنصر جديد اذ أدى التنافس بين انجلترا وفرنسا الى ان تصبح انجلترا سندا للوطنيين العرب المجاهدين ضد فرنسا ، وبذلك استطاعت ان تجد من بعض السوريين واللبنانيين سندا لها في مصر أو على الاقل يقفون على الحياد ، وهكذا تجمعت عدة عوامل تضافرت كلها على جعل السياسة الرسمية لمصر سياسة مصرية ، والسياسة الشعبية سياسة اسلاميـــة •

الحركة القومية في العالم :

بالاضافة الى ما تقدم ، يجب ان نشير الى ما كان يسود العالم كله من دعوة للقومية وذلك لنفسر قيام الدعوة الى الفرعونية في مصر في مواجهة الدعوة الى عروبة مصر • فقد عاش العالم كل تاريخه قبل الثورة الفرنسية يجهل معنى القومية ، بمعنى ان يكون لكل شعب يعيش على ارض معينة كيان خاص به،واستقلال في ادارة شئونه ، فلم يعرف العالم في القديم سوى

امبراطوريات تسيطر على شعوب مختلفة في دينها ولغتها • وقــد ربطت المسيحية بين مختلف شعوب اوربا في ظل الكنيسة ، كما وحد الاسلام بين كافة معتنقيه بحيث كان المناداة بالقومية الفارسية مثلا في مواجهة القومية العربية يطلق عليه اسم الشعوبية ، كلون من ألوان الانحراف في المجتمع الاسلامي ، حيث ينادي الاسلام بأن هذه امتكم أمة واحدة وانا ربكم فاعبدون • فالاسلام لا يعرف فواصل بين معتنقيه من جنس أو لون أو حتى دين متى استأمن الذميون (اهــل الكتاب من مسيحيين ويهود) وعاشوا في جوار المسلمين ، اذ يصبح لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم فالاسلام ينشىء مجتمعا انسانيا بغير حدود أو فواصل • وبهذه النظرة ، نظر المصريون الى الدولة العثمانية (تركيا) باعتبارها مقر خليفة المسلمين • كانت هذه هي النظرة التي كانت تسود العالم كله الى ما قبل القرن التاسع عشر • وقد ساعد على هذه النظرة وتأصلها في النفوس ان العائلة لا الدولة كانت هي اساس المجتمع • ثــم كانت الثورة الفرنسية في القرن التاسع عشر ، وارتفعت على آثارها صيحة القومية ، من ان كل جنس يجب ان يكون وحدة سياسية مستقلة ، وقد وافقت هذه الفكرة اطماع انجلترا من ناحية وروسيا من الناحية الثانية لكي يفككوا الامبراطورية العثمانية ، فراحوا يحرضون مختلف شعوب البلقان من يونان وصرب وبلغار وتشيك على الثورة على حكامهم الاتراك والمناداة بالاستقلال • وسرت الدعوة الى بقية شعوب أوربا المحكومة بالامبراطورية النمساوية مــن مجر وطليان وألمــان •

وهكذا نشأ على الفكر العالمي ما يسمى بالقومية ، وقد كان طبيعيا ان يصل صدى هذه الدعوة الى العالــم الشرقي بعامة والعربي بخاصة متأخرا بعض الوقت وقد كان اثرها المباشر في عرب المشرق تحريضهم ضد الاتراك وانطلقت الدعوة أول مــا انطلقت من لبنان ، وفي مصر اخذت القومية طابع مصر للمصريين كما قدمنا ، وبدأ التنادي باظهار شخصية مصر

وطابعها المميز في التاريخ والتغني بأمجادها ومفاخرها القديمة ونشأ تيار بين الجيل الجديد من المثقفين في العشرينيات لما يمكن ان نسميه دعوة للفرعونية وقد كنت واحدا ممن حملوا هذا اللواء على ما سوف اشرحه في الفصل القـادم .

على ان المصير المشترك الذي آل اليـه المجتمع العربي ، واسلامية الشعب المصري جعله يشتغل بكل القضايا العربية ويعتبرها قضاياه . ففي اثناء ما سمي بحرب طرابلس وقف الشعب المصري بكل عواطفه الى جوار السنوسي وعلى الرغم مـن ان مصر كانت محتلة بالانجليز التـي كانت متواطئة مع الطليان تفعل ما فعلوا ، فلم يتردد الشعب المصري من ان يقدم المعونات للشعب الليبي من كافة الالوان بما في ذلك تزويده بخيرة شباب مصر ، وقد صادفت انا شخصيا أربعة ممن صاروا زعماء وحكاما في مصر وقد بدأوا حياتهم العامة مكافحين من أجل صد الغزو الايطالي لليبيا وهم السادة : صالح حرب وعزيز المصري وعبد الرحمن عزام وحافظ عفيفي وليس هؤلاء الا نموذجا لترابط مصر مع ليبيا ولقد اشرت فيما سبق كيف خفق قلب مصر بكل شدة مع عبد الكريم الخطابي في المغرب ومع ثورة سوريا في المشرق ، وكانت مصر هي المأوى لاحرار السوريين بعد ان فشلت هذه الثورة وبدأت السلطة الفرنسية تلاحقهم وقد عرفت من زعماء العرب الملتجئين الى مصر في هذه الفترة الدكتور عبد الرحمن شهبندر زعيم سوريا آنذاك والثعالبي زعيم تونس ولكن خير من يستطيع ان يذكر ما كانت تغص به مصر آنذاك من زعماء العرب فهو صديقي الصادق الاستاذ محمد علي الطاهر صاحب جريدة الشورى التي كانت تصدر في مصر في هـذه الفترة وكان هو وكانت جريدته هي موئل احرار العرب من كل مكان .

قضية فلسطين :

وبدأ الانجليز مع اليهود أول خطواتهم لتهويد فلسطين ، وان الانسان ليتملكه الضحك وشر البلية ما يضحك عندما يتذكر الصورة التافهة بل

والتي كانت في وقتها تبدو في بعض الانظار سخيفة ، ولكنها عميقة الدلالة في أن اليهود قد رسموا مخططهم منذ أمد بعيد وراحوا ينفذونها خطوة أثر خطوة في غير ملل وسأم أو عجلة من أمرهم على ان يظهروا دائما بصورة البائس المسكين المغلوب على أمره والذين يريدون ان يعيشوا في سلام ويجدوا في خاتمة المطاف قطعة من الارض يدفنون فيها ، وكانت القضية أول ما ثارت تدور حول ما اشتهر في ذلك الوقت باسم حائط المبكى •

حائط المبكى :

كان أول مشكلة من مشاكل فلسطين استولت استيلاء جانيا علينا في شبابنا ما اطلق عليه يومئذ مشكلة « حائط المبكى » والمبكى هو احد جدران المسجد الاقصى • زعم اليهود انه قد أقيم على بعض (مداميك) اي احجار من هيكل سليمان القديم ، ولم يتثبت احد من هذا الزعم يومئذ ، والمهم ان اليهود اتخذوا من هذا الجدار من المسجد الاقصى مكانا يجيئون اليه ليذرفوا الدموع على ما اعتبروه مجدهم الذاهب • وعندما لم يكن الانجليز في فلسطين ، وعندما لم يكن عدد اليهود في فلسطين كلها يتجاوز خمسين ألفا ، وعندما لم تكن تل أبيب أكثر من حارة من حواري مدينة يافا العربية الشهيرة كل الشهرة في العالم العربي • وخاصة عندما كانت فلسطين كبقية المشرق العربي ، جزءا من امبراطورية اسلامية واحدة تعمل الدنيا لها ألف حساب ، فلم ير المسلمون بعامة ممثلين في عرب فلسطين أي بأس في أن يسمحوا لليهود ان يبكوا ما شاءوا بجوار المسجد الاقصى ، فالاسلام من ناحية دين تسامح ورحمة • ولم يجد اليهود امانا من الاضطهاد طول حياتهم الا في ظل الدولة الاسلامية ومن ناحية اخرى فقد كان اليهود من الذل والهوان بحيث كان عرب فلسطين ترق قلوبهم رحمة وعطفا على اليهود فلم يتعرض لهم متعرض في ممارسة هوايتهم من البكاء على جدران المبكى •

ويجدر بنا للانصاف ان نترحم على الدولة العثمانية ، وان نستغفر

عن الاخطاء التي ارتكبها العرب في حقهم ، فالحركة الصهيونية ، بمعنى استعادة فلسطين ومجد اليهود قديمة بدأت منذ القرن التاسع عشر ، وقد سعى الساعون من اليهود مع سلاطين آل عثمان ان يكون لهم في فلسطين موطىء قدم معترف به بما يشبه الكيان الخاص ، ففشلت كل جهودهم ومساعيهم ورشاويهم ، وبقي اليهود في فلسطين على ما كانوا عليه عبر مئات السنين ، أقلية مسحوقة في فلسطين ، تتركز بصفة خاصة في مدينتي القدس ويافا وفي يافا كانت لهم حارة خاصة بهم كما هو شأنهم في جميع انحاء العالم وكانت حارتهم في يافا تسمى كما قدمنا « حارة تل ابيب » •

والآن كان هذا العهد قد انتهى واحتل الانجليز فلسطين سنة ١٩١٧ وصدر وعد بلفور أمل اليهود المنشود وهو ان يسعى الانجليز لعمل التسهيلات والترتيبات لتحويل فلسطين الى وطن قومي لليهود ، وكان الانجليز بالفعل قد شرعوا في تنفيذ مخططهم فأقاموا بفلسطين حكومة انجليزية اسما ولكنها يهودية فعلا اذ كان رئيسها يهوديا انجليزيا وهو هربرت صمويل وتشكل المشرفون على مختلف دوائر الحكومة اما يهودي أو انجليزي متعاطف مع اليهود ، ولكن جريا على سياسة الانجليز واليهود معا لم يكن حاجة للعجلة وحسب اليهود هذه الخطوة الجبارة وهو ان حاكمها أصبح يهوديا ولم يعد يبرم أي امر بخصوص فلسطين الا بعد استشارة اليهود او بالاحرى استئذانهم • في ظل هذه الظروف الجديدة أصبح التهاون مع اليهود يشكل خطرا فادحا ، وخاصة بعد ان انتعشت آمالهم ، وانتفخت أوداجهم وراحوا يستعدون لاستعادة مجدهم الزائل الذي ألهبه من جديد في أنفسهم هرتزل النمساوي ، وبدأوا يتداولون فيما بينهم عملة خاصة بهم وطوابع بريد تحمل صكها صور هرتزل مؤسس الصهيونية • وكان الذي أهاج قضية حائط المبكى هو رغبة اليهود في ان ينشئوا لهم مظلة يستظلون بها وهم يمارسون هوايتهم أو بالاحرى عبادتهم من خلال البكاء ، وكانت هذه خطوة جديدة لاثبات حق اليهود في هذه

المنطقة ، وكنت لا تعدم من يقول لك في ذلك الوقت حتى مـن العرب والفلسطينيين أنفسهم ، وأي ضير في ان ندع هؤلاء التعساء يستظلون من حرارة الشمس ، اننا نحن العرب والمسلمين بخاصة قـد اشتهرنا بالكرم ودينن هو دين الرحمة والتسامح فيجب ان نرحم هؤلاء البؤساء من أشعة الشمس ومن الامطار .

ولكن المظلة لم تقـم ورأت سياسة الانجليز الماكرة ان لا تتعجل الحوادث فصدر حكم القضاء بعدم أحقية اليهود في انشاء المظلة .

هكذا بدأت أول مشاكل فلسطين واصطدام العرب واليهود صغيرة تافهة بل وسخيفة وعندما حاول مجاهد فلسطيني أمين[1] ان يحذر العرب والمسلمين من الزحف اليهودي ويتنبأ بأن اليهود يخططون لابتلاع فلسطين كلها وتأسيس دولة تشطر عرب المشرق عن مصر وعرب المغرب ، سخر منه الساخرون واعتبره الكثيرون متشائما يقول ما لا يتصوره العقل .

---

(١) كان ذلك المجاهد هو محمد علي الطاهر وقد نشر مقاله في جريدة فتى العرب .

الفصل الثالث

كيف اصبحت احد دعـاة الوحدة العربية

مناظرة في الجامعة ـ الشيخ رشيد رضـا

الاستاذ محمد علي الطاهر ـ رحلة الى لبنان

وسوريا عبر فلسطين

كيف نشأت الدعوة للفرعونية

لا يجب ان يدهش أي باحث أو مؤرخ لاستيلاء الدعوة للفرعونية على اذهان المثقفين في مصر في العشرينيات من هذا القرن لسبب بسيط جدا ، وهو ان العالم كله كان يرتج بمجد مصر الفرعوني • ففي عام ١٩٢٣ ومطلع عام ١٩٢٤ فيما اذكر كان اللورد كارنرفون والاثري الشهير كارتر قد وفقا الى ما يمكن اعتباره واحدا من أعظم الاكتشافات الاثرية في كل عهود التاريخ اذ عثرا على مقبرة الفرعون الشاب توت عنخ آمون ، وقد كانت المقبرة مخفية عن أعين لصوص المقابر القدامى والمحدثين ، ولذلك فقــد كانت الاثاثات والمهمات والتحف والاغذية التي اعتاد الفراعنة ان يدفنوها معهم لاستعمالها في الحياة الآخرة ، وجدت كلها سليمة لم تمس كما عثر على مومياء توت عنخ آمون نفسه داخل عديد من التوابيت كل منها داخل الآخر حتى اذا وصلوا الى التابوت الاخير الذي كانت الجثة داخله مباشرة كادوا يصعقون من كتلة الذهب الضخمة التي صيغ منهــا التابوت ، هذا الى بقية الاثاثات مــن عرش واسرة ومقاعد ومجوهرات وتماثيل ، أقول وارتج العالم كله ولم يعد هناك ما يشغله سوى انباء هذا الكشف العظيم ، وسارع العلماء والكبراء والزوار مــن أربعة ارجــاء المعمورة ، يتدفقون على مصر لمشاهدة المقبرة العجيبة بما حوته من كنوز فاقت كل حصر وخيال وكان في مقدمة من وفدوا الى مصر ولي عهد انجلترا البرنس أوف ويلز واهتزت اسلاك البرق حيث راحت شركات الانباء تنقل لعشرات الملايين من القراء انباء الكشف يوما بعد يوم بل ساعة بعد ساعة ،

وفتن العالم بهذا الحدث واصبح اسم توت عنخ آمون على كل لسان ، وتسابقت شركات الانتاج بشتى صنوف الانتاج لتسمية منتجاتهم باسم توت عنخ آمون ، فأنتجت شركات النسيج أقمشة توت عنخ آمون من كل لون وطراز ، وشركات الاحذية وشركات العطور والمجوهرات ، وبدا كما لو كان العالم كله قد جن جنونه بتابوت عنخ آمون ، وامتلأت المسارح في طول الدنيا وعرضها بمسرحيات فرعونية ، وصدرت الوف الكتب بشتى اللغات عن حضارة مصر الفرعونية وفضلها على العالمين وصادف ان كانت أول حكومة شعبية يرأسها سعد زغلول قد تربعت على الحكم يساندها أول مجلس نواب طالما حلمت به مصر اذ كان له سلطة اسقاط الوزارة ٠ وكان الملك في الدستور يملك ولا يحكم وانما كان الحكم لممثلي الشعب فلا عجب ان سكر الشعب بخمرة الانتصار وجاء هذا الكشف يربط بين الماضي المجيد والحاضر الذي يبشر بمستقبل سعيد ، فلا عجب اذا اعتز المصريون بأصلهم العريق وتنادوا ببعث مجدهم القديم ٠

وقد بدأت شبابي المبكر بهذه الدعوة وأكبرها في نفسي اشتراكي في تمثيل روايتي توت عنخ آمون ومجد رمسيس بالمدرسة الخديوية ، وقد كانتا روايتين من نوع الاوبرا مليئتين بعشرات الالحان من تأليف سيد درويش كلها تتغنى بمجد مصر الفرعونية وعظمتها ، ثم كانت رحلتي مع زملائي كشافة المدرسة الى الأقصر واسوان حيث آثار مصر الخالدة ، وحدث ان كانت اولى زيارتنا لمعبد الكرنك في الليل على ضوء القمر ٠ وكان شيئا فوق طاقتنا وخاصة عندما وقفنا وسط دهليز ما اصبح يطلق عليه دهليز الاثني عشر عمودا ، وأصبحنا بكل جماعتنا كالنمل في غابة عملاقة ووجدتني بعد ان انتهت جولتنا انطلق خطيبا وسط اخواني ووسط دهشتي من نفسي قبل دهشتهم اذ انحلت عقدة لساني فرحت آرتجل الكلام في حماسة ، وكنت قبل ذلك اتلعثم اذا قلت كلمتين ، فاذا بي انطلق كالصاروخ لاول مرة في حياتي ، وما زلت أعي جوهر ما قلته في هذه الليلة

التاريخية ، قلت لاخواني اذا كان اجدادنا الاول قد فعلوا هذه الم
فباستطاعتنا ان نفعل مثل ما فعلوا • ان سماء مصر هي سماؤها وأر
ورمالها هي ذات الارض والرمال وقبل ذلك وفوق ذلك فالنيل هو النيل
فلم يعد ينقصنا سوى العزم والارادة ، فلتجمع ارادتنا ان نبعث مجد
بلادنا ولكن جديرين باسلافنا • ومن هذه الليلة كرست حياتي لبعث مجد
مصر الفرعوني وناديت مع المنادين بالفرعونية وبالغت في ذلك فدعوت الى
التسمي بأسماء فرعونية مبتدئا بنفسي فأطلقت على نفسي اسم (أحمس)
ومن الطريف ان هذا الاسم الفرعوني يصلح بالفعل ان يكون اختصارا
لاسم احمد حسين • وأصبحت مجنونا بالفرعونية • وكانوا في هذه
السنوات يحتفلون في ١٣ نوفمبر من كل عام بما كان يطلق عليه اسم عيد
الجهاد الوطني تخليدا لذكرى اليوم (١٣ نوفمبر ١٩١٨) الذي ذهب فيه
سعد زغلول وشعراوي وعبد العزيز فهمي لمقابلة السير ونجت المعتمد
البريطاني في مصر ليطلبوا منه ان تمثل مصر في مؤتمر الصلح لتقرير
مصيرها ، فكان ما كان من سخرية المعتمد البريطاني بهذا المطلب واعتقال
سعد زغلول ونفر من اخوانه ونفيهم الى مالطة وغضبة الشعب المصري
لذلك ، واندلاع ثورة سنة ١٩١٩ وقد اعتاد الوفد المصري ان يحتفل
بيوم ١٣ نوفمبر باعتباره عيدا للجهاد الوطني فدعوت طلاب الجامعة ان
يكون احتفالنا في هذا اليوم في ظل الهرم لنستلهم الامجاد الفرعونية ،
وهكذا اشتهرت بأنني مجنون الفرعونية •

انقلاب :

وكان اتحاد طلبة الجامعة في هذه الايام يجري مناظرات في القضايا
التي تشغل الرأي العام ، يدعو اليها أساطين رجال الفكر ويشرك معهم
الطلاب • وقرر اتحاد الجامعة ان يجري مناظرة حول احدى المشاكل التي
تشغل الرأي العام وبخاصة الشباب وهو موضوع الفرعونية والعروبة
وبأيهما نأخذ ، ولكنهم عندما جاءوا ليصوغوا المشكلة ويضعوها في كلمات

محددة اخطأوا الصياغة اذ اصبحت القضية في تصورهم ، « هـل نأخذ بالحضارة الفرعونية ، أو الحضارة العربية » واختاروا للوقوف في صف الحضارة الفرعونية محاميا كبيرا في ذلك الوقت وهو المرحوم الاستاذ لطفي جمعه ، وفي جانب العروبة العلامة الجهبذ المرحوم الشيخ رشيد رضا ، ووضعوني الى جوار لطفي جمعه في صف الفرعونية بدون استئذاني باعتبار أن ذلك أمر مفروغ منه ، وجاء زعماء الاتحاد الذين خططوا لهذه المناظرة يهنئوني ان ستتاح فرصة ذهبية كي (ألعلع وأجلجل) وأصول وأجول في دعوتي للفرعونية ، وقد كانت هذه المناظرات في ذلك الوقت حدثا ضخما اذ كان يحتشد لسماعها مئات ومئات من زبدة الطلاب والمثقفين والمشتغلين بالمسائل العامة ، وفوجيء زعماء الاتحاد بمعاتبتي لهم على وضع اسمي في الجانب الخاسر مـن المناظرة بدون استئذاني • فقالوا ألست تزعجنـا بالفرعونية كل صباح ومساء وهذه فرصتك لعرض القضية علـى الرأي العام ، ونحن لا نفهم كيف تتصور ان جانب الفرعونية سيكون خاسرا ، فقلت ولكنكم صغتم الموضوع بطريقة لا يمكن الا ان تخسر الفرعونية ، فاذا كان ولا بد ان اشترك في هـذه المناظرة فاني اختار جانب العروبة ، ودهش أصحابنا لما تصوروه انقلابا ، ورأوا ان ذلك سيجعل الموضوع اكثر اثارة • وبالفعل جاء طلاب الجامعة وهم في شوق لسماع ما يمكن ان أقوله في صف العروبة بعد ان ملأت الدنيا ضجيجا بالاشادة بالفرعونية والتغني بأمجادها • وجـاء موعد المناظرة واحتشد مدرج كلية الحقوق الكبير بخلاصة الرأي العـام المثقف في مصر في ذلك التاريخ (مطلـع الثلاثينات) وجلسنا نحن المتناظرين على جانبي المنصة لطفي جمعة والى جواره عبد الكريم ابو شقة خطيب الجامعة في ذلك الوقت ، وعلى الجانب الآخر جلس الشيخ رشيد رضا يرحمه الله وانا الى جواره والناس في حيرة كيف يرونني في هذا الجانب • وتكلم لطفي جمعة وسط التهليل والتصفيق وظهر من اللحظة الاولى ان جمهرة الحاضرين من انصار الفرعونية ، وتكلم

الشيخ رشيد رضا ، ولست اعرف الآن أكان ذلك تأثير السن ، أم ان الرجل كان كاتبا اكثر منه متكلما فقد راح يفأفي ويتمتم ، بصوت لا يكاد يبين ولست اذكر أنه قال شيئا يذكر والمهم انه عندما أتم كلامه كان كل من في القاعة قد جزم بنتيجة المناظرة وهو الفشل المطلق لجانب العروبة وانتصار الفرعونية ، وازداد اليقين بحتمية هذه النتيجة بعد ان خطب عبد الكريم ابو شقة وأبدع في حديثه وجلس وسط عاصفة من التصفيق استمرت بضع دقائق ، ولم يبق الا اياي ، ووقفت وكلي ثقة انني سأقلب الميزان بمجرد ان أطلع الحاضرين على الزاوية التي يجب ان ينظروا منها للقضية ، وارهفت الاسماع ، وحبست الانفاس عندما وقفت لاتكلم فقد كانت شهرتي في الدعوة الى الفرعونية تسبقني في كل مكان ، وبدأت اتكلم فقلت ان الجانب الآخر راح يحدثنا عن امجاد مصر الفرعونية ويشيد بحضارتها وفضلها على العالمين ، وتلك قضية لا نتازع فيها ، ولقد سمعني الكثيرون منكم احاضر الساعات الطوال في هذا المعنى ، ولو شئتم لزدت على ما قالوه اضعافا مضاعفة في التغني بالحضارة الفرعونية ، ولكن القضية التي نناقشها الليلة ، ليست هي عظمة الحضارة الفرعونية ولكنها تدور حول تساؤل بأيها تأخذ مصر اليوم في القرن العشرين بالحضارة الفرعونية أو الحضارة العربية ، ووضع القضية على هذه الصورة لا يدع لنا مجالا للاختيار انه ليس امامنا الا طريق واحد طريق العروبة ، ما هي الحضارة انها الدين واللغة والعادات والتقاليدوالفنون والاداب والعلم فماذا يعني ان تأخذ مصر بالحضارة الفرعونية ، هل يعني ذلك ان ننسلخ من دين الاسلام وعبادة الله الواحد الاحد ونعود الى عبادة آمون أو رع وأوزوريس ، لا أظن ان احدا يفكر في ذلك ، وهل يراد منا ان نتخلى عن لغتنا العربية لغة القرآن ونعود الى اللغة الهيروغلافية التي لا نعرف كيف تنطق وانما نعرف فقط كيف تكتب أو بالاحرى كيف ترسم لانها لا تعدو ان تكون صورا ، هل يراد منا ان يتزوج الاخ اخته وان نقدس القطط والثعابين •

وعند هذا الحد كان الجمهور قد ادرك الزاوية الصحيحة للموضوع فانطلق يصفق وبدأت أسيطر على الموقف • وهنا اخذت أحاول السخرية من هذا الشيخ الجليل الشيخ رشيد رضا ، واني اذكر ذلك الآن كنوع من الندم والرغبة في الاعتذار والتكفير ، فقد ادركت فيما بعد كم هو عظيم وكبير ، كم هو مصلح ومجدد وحسبه ان كان تلميذ الشيخ محمد عبده وحافظ تراثه ومتابع رسالته في العالم الاسلامي رحت أقول متابعا وجهة نظري ، ماذا يراد بنا من اعتناق الحضارة الفرعونية ، ايراد مثلا من الشيخ رشيد رضا ان يطلق على نفسه اسم الشيخ حتشبسوت مثلا ، وان يخلع عمامته ، وان يسير عاريا الا مما يستر العورة كما كان قدماء المصريين • فالدعوة الى اعتناق الحضارة الفرعونية ، هو كلام سخيف وفج ، وصفق الجمهور ، بينما ارتفعت حماستي ومضيت أقول : ثم أي فائدة نفيدها في هذا العصر من ان نطلق صيحة تباعد بيننا وبين خمسين مليون عربي • ان بلادنا محتلة بعدو أجنبي وكذلك بقية البلاد العربية ، وما بقينا متفرقين فسيظل الاحتلال والاستعمار متمكنا منا جميعا ، فلا مناص من توحيد الصفوف وسد الثغرات • لقد تعلمنا هنا في كلية الحقوق أن ثمة خمسة عناصر يمكن ان تقوم على اساسها الامم ، وهي اللغة والدين والتاريخ المشترك والمصالح المشتركة والمصير المشترك ، وكل هذه الروابط وما ينبثق منها من ثقافة وعادات وتقاليد مشتركة تربط بيننا وبين البلاد العربية فيجب ان نتنادى بما يربطنا والعرب ، اما عن الماضي البعيد فنحن نفتخر ونعتز به وهو من مقوماتنا ، ولكننا أصبحنا نعيش في زمن الكتل الكبرى ومستقبلنا هو في التكتل الى جوار العرب ، فنحن عندما نحمل لواء العروبة يجب ان نشق طريقنا نحو الحرية ونحو المجد •

ووقف كل من في القاعة يصفقون ولم يكن هناك حاجة للتصويت فقد أغنى تصفيق الجماهير وهتافهم عن كل تصويت ، وأصبحت منذ هذه الليلة من اكثر الدعاة تحمسا للدعوة العربية • على ان هذا الانقلاب من

الفرعونية الى العربية ، كان ثمرة بذرتين غرستا في نفسي منذ ثلاث سنوات سابقة وظلتا تنموان داخل نفسي في صمت ، حتى جاءت المناسبة فأزهرتا في هذه الليلة • اما هاتان البذرتان فهما خطبة من العلامة اسعاف النشاشيبي احد اساتذة التعليم في فلسطين ، والبذرة الثانية هي رحلة قمت بها مع رفيقي صباي وشبابي المبكر الاستاذ فتحي رضوان أطال الله عمره والشهيد كمال الدين صلاح ، وكانت الرحلة الى لبنان وسوريا عبر فلسطين ، ولكني قبل أن اعرض لتفصيل هاتين البذرتين ، أريد ان اسجل كيف كانت هذه المناظرة سبيل التقائي لاول مرة مع شيخ العروبة المجاهد الكبير محمد علي الطاهر ، هذا التعارف الذي انقلب فيما بعد الى زمالة جهاد فصداقة العمر كله ، واللطيف انني انكرت تحية الرجل لي في بادىء الامر كمظهر من مظاهر غرور الشباب وليس الا بعد عدة سنوات عندما ادركت ضخامة ما عناه من هذه التحية ، فقد قابلني في عرض الطريق بعد المناظرة ببضعة أيام فأقبل علي مهنئا ومحييا ، ثم اضاف قائلا : لقد كنا نناقش مع بعض الزملاء الذين حضروا المناظرة فرجحناك على الشيخ رشيد رضا ، ومع ان هذا القول كما ترى ايها القارىء فيه كل التحية ، ولكني يومئذ لم ادرك مدى ما فيه من اعزاز واكبار فقد كنت اجهل قدر الشيخ رشيد رضا من ناحية ، ومن ناحية اخرى فقد اعتبرت ما قاله الشيخ رشيد رضا ليلة المناظرة كاد يكون نكبة على القضية ، فترجحي عليه مسألة لم تدخل البهجة على نفسي ، فشعرت بشيء من الامتعاض ، اما الآن وبعد أربعين سنة من هذه الواقعة ، فقد أصبحت اقدر كل التقدير كم تكبد الاستاذ محمد علي الطاهر من جهد ومشقة وهو الرجل الدقيق الذي يزن الرجال ، كما بذل من جهد ومشقة ليقول لشاب صغير مبتدىء : لقد فضلناك على الشيخ رشيد رضا ، واني أقص هذه الواقعة ليتعظ بها الشباب فلا يقسوا على اعلام الماضي بعد ان يصبحوا شيوخا ولا يتسرعون في اصدار احكامهم عليهم من موقف عابر يرونهم فيه •

الفصل الرابع

خطاب اسعاف بك النشاشيبي ــ الرحلة عبر بعض البلاد العربية ــ تأسيس مصر الفتاة ــ النص في في مبادئها الاساسية وبرنامجها على الوحدة العربية

وفد من الطلاب اليهود :

قدم الى مصر وفد من طلاب فلسطين اليهود وبطبيعة الحال استقبلوا في مصر من الجهات الرسمية وفي المدارس أحسن استقبال بناء على أوامر الانجليز ، وهكذا بدأ اليهود يظهرون ككيان لـه شخصيته في فلسطين وبدأوا يمدون خطوطهم ، وهذه الواقعة دليل على ما كان اليهود يتمتعون به من حسن المعاملة قبل ان تكون لهم دولة تهدد العرب بالفناء والابادة ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، وجيء بوفد الطلاب اليهودي الى المدرسة الخديوية حيث كنت قـد انشأت بها مسرحا دائما نقدم عليه مسرحياتنا المدرسية ، وكنت في ذلك الوقت رئيس فرقة تمثيل المدرسة الخديوية ، وكانت شهرة فريقها في التمثيل قد استطارت ، وزاد انشاء المسرح الدائم في شهرتها ، ولذلك كانوا يجيئون بالضيوف الاجانب دائما اليها .

العـرب يتحركون :

وكان عرب فلسطين قد تنبهوا لما كان يجب ان يكونوا هم البادئين به ، فجاء الى مصر على اثر وفد الطلاب اليهود وفد من الطلاب العرب وكان على رأس الوفد مدير التعليم اسعاف بك النشاشيبي احد قادة الفكر في العرب في ذلك الوقت ، وشتان بين استقبالنا لوفد الطلاب اليهود وبين استقبالنا لهذا الوفد ، فحيث لا اذكر الآن الا صورة باهتة جـدا للوفد اليهودي ، فان صورة الحرارة التي استقبلنا بها وفد الطلاب العرب مـن سكان فلسطين لا تزال حية في نفسي ، ولا تزال كلمات اسعاف النشاشيبي ترن في اذني وفي قلبي ، ولا جدال انها كانت أول صيحة هزت وجداني

وفتحت عيني على الروابط القوية المقدسة التـي تربطنا ببقية الشعوب العربيـة .

في ذلك الوقت (١٩٢٨) كنت قد اعتدت في حفلاتنا التمثيلية ان القي قطعة تمثيلية منفردا مما تسمى في عالم التمثيل (مونولوج) وهـو بعنوان (برغم أنف نابليون) ويدور المونولوج حول محاولة نابليون ان ينسف تمثال (ابو الهول) ولكنه لم ينجح ، على ما يقول المونولوج ، الا في تحطيم انف ابي الهول بالرغم من كل المدافع التي اطلقت عليه وطبعا لم تقع هذه الحادثة ، فنابليون قد جاء الى مصر ومعه زهرة علماء فرنسا ، وبخاصة علماء الآثار ، ولكن هكذا جرى خيال كاتب المونولوج في قطعة حماسية بليغة كانت تحرك مشاعر الشباب المصري آنذاك ، وقد كان من بين عبارات المونولوج عبارة تجري على لسان نابليون وهو يأمر مساعده كليبر ان ينسف بمدافعه ابا الهول ، وهذه العبارة هي : « انسف هـذه الصخرة والا ابتلعتنا مصر كما ابتلعت الفرس والرومان والعرب ، وكانت هذه العبارة على لسان نابليون ، هي التي اهاجت اسعاف بك النشاشيبي فعندما وقف خطيبا في حفلـة الشاي التي اقمناها بعـد الحفلة المسرحية لتكريمهم ، كان أول ما نطق به هو التنديد بهذه العبارة ، وما زلت احفظ كلامه بالحرف الواحد ، وقد كان خطابه أول خطاب يحرك وجداني واني بعد هذه السنين الطويلة استمطر شآبيب الرحمة على جدثه ، قال بدون اي مقدمات : هناك في هذه الحجرة ، قال لنا شاب مصري ، ان مصر قد ابتلعت الفرس والرومان والعرب وصحيح ان مصر قد ابتلعت الفرس ، وابتلعت الرومان ، ولكنها لم تبتلع العرب ذلـك ان العرب جاءوا مصر بشفيعين ، القرآن ومحمد ، ايها المصري انك جميل ، هناك في انجلترا جاء الانجلو فاختلطوا بالسكسون فكان هـذا المزيج المتفوق وهم الانجليز (الانجلو ساكسون) وكذلك آنتم ايها المصريون انكم لستم بمصريين ، ولستم بعرب انكم عرب مصريون ، فكونوا لنا في المشرق العربي ما كانه

الانجلو ساكسون في انجلترا • واشهد ان اسعاف النشاشيبي قد هـز وجداني كما لم يهزه أحد من قبل وأشهد أنه كان يؤكد حقيقة تاريخية ثابتة ومؤكدة ألا وهي ان المصري الحديث ، هو مصري عربي •

رحلة الى الشـام ولبنـان :

أما البذرة الثانية التي غرست العروبة في نفسي منذ هـذا الوقت المبكر ، فقد كانت رحلة الى لبنان مـع زميلي الصبا والشباب ، فتحي رضوان وكمال الدين صلاح ، وهي الرحلة التي أشرت اليها من قبل ، فقد عن لنا وقد كنا دائمي الرغبة في عمل كل مـا يوسع معلوماتنا ويزيد فـي ثقافتنا ، ان نمضي جانبا من الصيف في ربوع لبنان وقد كان ذلك حلـم كثيرين من المصريين • وكان علينا لدخول لبنان عبر فلسطين ان نحصل على تأشيرة عبور لفلسطين من القنصلية الانجليزية ، ولدخول لبنان من القنصلية الفرنسية ، وبطبيعة الحال كان هذا اجراء جديدا بعد احتلال الدولتين للقطرين الشقيقين ، أما قبل ذلك فقد كانت كل هذه الاقطار بلادا عثمانية لا يحتاج اي عربي لاذن خاص للاقامة والعمل فيها ، فضلا عـن الدخول اليها أو المرور بها ، وكانت سوريا ولبنان وشرق الاردن وفلسطين يطلق عليها اسم بر الشام باعتبارها وحدة سياسية واحدة فكان هناك بر مصر ، وبر الشام ، وبر العراق • وكان الشام مقسما من الناحية الاداريـة البحتة الى سناجق أومتصرفيات وعلى هذا الاساس فقد كان هناك سنجق دمشق ، وسنجق بيروت ، وسنجق القدس •

الرحلـة :

لم تكن هناك أي صعوبة في الحصول على التأشيرات اللازمة • وقد كان هناك قطار يومي يقوم من محطة القاهرة مساء كل يوم ، وينتهي عند حيفا • وكنا نتام بالقطار اذ كان يسير طول الليل ، وكان يسير في أرض مصرية خلال الليل حتى يصل الى رفح حتى اذا اشرقت الشمس كنا قـد وصلنا الى خان يونس فغزة ، وأخيرا وصلنا الى حيفا ، ومنها ركبنا سيارة

اجرة انطلقت بنا نحو بيروت مارين بعكا ، وفي الطريق نزلنا في احد المقاهي وتناولنا لأول مرة الطعام الشامي ، حيث قدم لنا هذا الخبز الرقيق والحمص والشواء ، ووصلنا بيروت ، حيث اخذنا من موقف السيارات صاحب فندق من قرية تدعى المروج بالقرب من ضهور الشوير ، وفي سفح الجبل صنين ، وقد نزلنا ثلاثتنا في هذا الفندق الريفي الجميل ، بما كان يساوي جنيها مصريا • وكان الجنيه المصري يساوي عشرة ليرات ، أي ان كلا منا كان يدفع ثلاث ليرات في مقابل النوم والطعام وما كان اكثره في ذلك الوقت • وقد أثر جبل لبنان في نفوسنا في ذلك الوقت تأثيرا عميقا لعديد من العناصر منها حفاوة اهله بنا ، وقد كان المصريون في ذلك الوقت اكثر المصطافين سخاء وانفاقا ، فلم يكن البترول قد اكتشف ، ولم يكن هناك بطبيعة الحال كويتيون وسعوديون يجيئون الى لبنان ، وليس الا بعض العراقيين بالاضافة الى سكان بيروت انفسهم وقد سجلت انطباعاتي عن هذه الرحلة في روايتي أزهار • وكان طبيعيا ان نزور دمشق ونتعرف على معالمها وكذلك القدس ، وما زلت اذكر حادثا عابرا وقع لي مع بائع متجول من فلسطين ترك في نفسي أثرا عميقا ولذلك فهو جدير بالتسجيل بعد هذا العمر الطويل ويتلخص هذا الحادث في انني وقفت امام رجل فلسطيني عجوز كان يبيع ما نسميه في مصر (تين شوكي) وكان جميلا جدا ومغريا ، فقلت له اعطني بقرش صاغ ، فاذا به يقول على الفور : يا سلام بقرش صاغ يبقى كثير جدا ، فكل ما هو امامي أبيعه بقرش صاغ • قل انك تريد ما يساوي (برغوته) ولم أدر يومئذ ما الذي يعنيه بكلمة برغوتة ولكنها من غير شك شيء يقل عن المليم الذي هو جزء من عشرة اجزاء من القرش ، وبطبيعة الحال شكرنا الرجل على أمانته واعطيناه القرش وأكلنا كفايتنا من التين الشوكي •

هذه الرحلة وما عوملنا فيها من حفاوة ، وما صادفنا من زمالة وحب للمصريين في كل مكان حللنا به ، كان من شأنه ان يغرس في نفسي حب العروبة وان مستقبل مصر مرتهن بارتباطها بالبلاد العربية •

ام كلثوم وعبدالوهاب وشوقي :

على ان البلاد العربية آنذاك بدأت ترتبط عاطفيا عن طريق الاعجاب بصوت أم كلثوم وعبد الوهاب ولا يندهش قارىء ان كان لأم كلثوم وعبد الوهاب هذا التأثير منذ هذا العصر المبكر فقد بدأ هذان الفنانان منذ عصر مبكر جدا وهما يؤلفان وبخاصة أم كلثوم احدى المعجزات البشرية فلست أظن أنه يوجد في كل تاريخ الانسانية من ظلت متربعة على عرش الغناء نصف قرن واستولت على عواطف الجماهيرمنذ اللحظةالاولى. والى جوار أم كلثوم وعبد الوهاب كان الكتاب المصري والصحف المصرية تأخذ بألباب العرب .

امير الشعراء احمد شوقي :

غير ان الذي وجد بين مشاعر العرب في هذا الوقت المبكر من غير مراء أو شبهة فقد كان هو أمير الشعراء احمد شوقي والذي بعث الشعر العربي في أبهى صوره ، بحيث لن نجد له مثيلا في كل تاريخ العرب في الجاهلية أو الاسلام الا أن يكون المتنبي ، وكان العرب من الخليج الى المحيط كما أصبحوا يقولون اليوم يترنمون بشعره ويحفظونه عن ظهر قلب ، وكان شوقي سباقا الى تسجيل كل الحوادث والنكبات التي كانت تصيب أي قطر عربي ، فيبادر بتصويرها في شعره وكم وجدت احداث سوريا وانتفاضاتها المتكررة ضد الفرنسيين صداها في شعر شوقي من ذلك قوله : سلامٌ من هوى بردى أرقُّ ودمعٌ لا يُكفكفُ يا دمشقُ

وقد تبلور اثر شوقي في جمع صفوف العرب على قلب رجل واحد ، عندما اجتمع أول مؤتمر من فطاحل رجالات العرب وزعمائهم ومفكريهم وادبائهم وشعرائهم لتكريم شوقي ومبايعته اميرا لشعراء العرب . وقد خلد حافظ ابراهيم (شاعر النيل) زعامة شوقي للشعر العربي في مطلع قصيدته التي ألقاها بهذه المناسبة اذ قال :

امير القوافي قد أتيت مبايعا

وهذي جموع الشرق قد بايعت معي

سر التحـول :

وهكذا عندما تحولت لأكون من دعاة العروبة في مصر لم أكن أبدأ من فراغ ، وانما كان تحولي من الفرعونية الى العروبة هو استجابة لتطور الرأي العام ، ولتشابك المصالح العربية بالفعل ، ولتفاعل الشعب العربي في كل الاقطار بما يقع في القطر الآخر ، وهكذا عندما جلسنا نحن الشباب في ذلك العهد (الثلاثينات) لنسجل احلامنا وأمانينا في مستقبل أفضل وأسسنا حركة مصر الفتاة قلنا عن غايتنا من الكفاح وهدفنا :

ـ وغايتك ان تصبح مصر فوق الجميع دولة شامخة تتألف من مصر والسودان وتحالف الدول العربية وتتزعم الاسلام . وهذا الترابط بـين الدول العربية الذي عبرنا عنه بصيغة التحالف حيث تحتفظ كل دولة عربية بكيانها واستقلالها هو الصيغة الموفقة التي انتهوا اليها بعد عشرين سنة من التجارب المرة القاسية ، والا تنكاسات والخذلان .

وقد كان برنامج مصر الفتاة ودعوته للتعاون مع الدول العربية كهدف للنشاط السياسي ، هو أول صيحة من نوعها في تاريخ مصر بعد الحرب العالمية الاولى ، حيث كان المصريون ينظرون الى العرب بازدراء للاسباب التي أشرت اليها من قبل وهو وقوفهم الى جوار انجلترا ضد تركيا .

قضية فلسطين :

على انه اذا كانت السنوات الاولى من كفاح مصر الفتاة ، قد انقضت في مشاكل مصر المحلية ، فان قضية فلسطين سرعان ما بدأت تفرض نفسها بحيث تستولي على اهتمامنا . وجاء الوقت الذي أصبحت فيه هي شغلنا الشاغل ، بحيث غادرت مصر الى جبال فلسطين وكذلك فعل خيرة شباب مصر الفتاة ، مؤلفين ما اسميناه كتيبـة مصطفى الوكيل شهيد العروبـة والاسلام . ولكن ذلك حدث بعد الحرب العالمية الثانية وتقرير هيئة الامم تقسيم فلسطين ، ولكن لا نسبق الحوادث ولنذكرها بالترتيب فكـم في سردها من حكم وعظات وتجارب يجب ان نستفيد منها . على اننا قبل ذلك يجب ان نتحدث عن نشأة قضية فلسطين من اساسها ليلم بها ابناء الجيل الجديد .

الفصل الخامس

قضية فلسطين

من هم اليهود ؟ ــ من نسل ابراهيم ــ والعرب من نسل ابراهيم ــ انهيار دولــة اليهود وتشتتهم ــ دخــول الاسلام والعــرب الى فلسطين ــ الحروب الصليبية ــ الصهيونية في العصر الحديث ــ احتلال الانجليز لفلسطين ــ وعد بلفور .

ليس هذا كتاب بحث تاريخي وثائقي ولكنه ذكريات حية وانطباعات عن معايشتي للعروبة وقضية فلسطين طوال نصف قرن ، على ان ذلك لا يمنع من ذكر عجالة صغيرة عن تاريخ فلسطين واليهود ليكون هناك لدى الشباب من قراء هذا الكتاب فكرة عامة عن نشأة القضية ، ولا مناص لنا من الرجوع الى الوراء الوراء جدا ما دام ان اليهود الذين اخرجوا هذه القضية الى الوجود يرجعون الى هـذا الوراء لاثبات حقهم التاريخي في فلسطين ، فهم يزعمون ان الله سبحانه وتعالى قد تعاقد مع جدهم الاعلى ابراهيم ، ان يعطي الارض من النيل الى الفرات لابراهيم وسلالته من بعده بعـد ان يكثرهم فيصبحوا كنجوم السماء وحبات الرمال . وقـد مات ابراهيم دون ان يكون صاحب شبر من الارض الا مغارة المكفيلة التي دفن فيها ، ولم يكثر عدد اليهود فحيث اصبح سكان العالم يزيدون على ثلاثة آلاف مليون لا يزيد عدد اليهود في العالم كله على بضعة عشر مليونا واذا جاز ان تكون النبوءة صحيحة فان العرب هم ابناء اسماعيل ، وهم الذين يملكون بالفعل الارض مـن الفرات للنيل ، واذا سألت ولماذا وعـد الله ابراهيم ان يعطيه ونسله هذه الارض فذلك في زعمهم ان يكونوا شعبا خالصا من مصر ويقول كتابهم المقدس ويؤيد ذلك القرآن ان الذين وفدوا على مصر كانوا هـم يعقوب وأولاده العشرة من ام واحدة وابنه شقيق يوسف من أم ثانية ، وقد كان يوسف على ما يروي كتاب اليهود ويؤيده القرآن قد اصبح وزيرا في مصر ، فأقطع فرعون اخوة يوسف وعائلته ناحية من الارض يعيشون فيها ، وتكاثروا وتناسلوا حتى يقدر كتاب اليهود ان عددهم زاد على الثلاث مائة الف . وليس شك ان هذا عدد مبالغ فيـه ،

وكيفما كان الامر فهذا هو العدد الذي خرج من مصر تحت قيادة موسى ، وعاش في شبه جزيرة سيناء تائها أربعين سنة ، ومات موسى في نهاية هذه الفترة ، وغزا الاسرائيليون منطقة فلسطين ، وانتزعوا جزءا محدودا منها ، عاشوا فيه وأسسوا فيه مملكة حكمها داود وسليمان لمدة لـم تزد على سبعين سنة لـم تلبث الدولة بعدها ان انقسمت الـى دولتين اسرائيل في الشمال ويهوذا في الجنوب ودخلت الدولتان اليهوديتان على صغر حجمهما وضآلة شأنهما في صراع دموي فيما بينهما ، حتى كانت نهاية دولة اسرائيل سنة ٧٢٢ قبل الميلاد على يد الآشوريين الذين ازالوا الدولة من الوجود ٠ أما دولة يهوذا في الجنوب وكانت أصغر وأفقر من اختها ، فقد عاشت مدة أطول حتى قضى عليهـا بختنصر الذي فتح القدس وحرق الهيكل وبيت الملك عام ٥٨٦ ق٠م وسبى حوالي ٥٠ ألف أسير قادهم الى عاصمة ملكه في بابـل ٠

وقد كانت الدولتان الصغيرتان اثناء وجودهما تابعتين للدول العظمى من حولهما فتارة لمصر واخرى للعراق ٠ وكعادة اليهود في كل تاريخ حياتهم ان يكونوا عونا وجواسيس للقوة الاعلى في العالم ، ساعد المنفيون منهم في بابل الملك كورش امبراطور الفرس ومكنوه من احتلال بابل ، فلما فتح كورش الشام أمر باعادة اليهود الى منطقة القدس ، ففضل الاكثرون البقاء في بابل حيث كانوا قد اغتنوا وأثروا لاشتغالهم بالتجارة (كما هو شأنهم اليوم في امريكا) وعاد الاقلون الى منطقة القدس واعادوا بنـاء الهيكل بتصريح من قورش وذلك عام ٥١٦ ق٠م٠ ٠

ولسنا نريد ان نسهب في السير مع وقائع هذه الشراذم من اليهود الذين عاشوا في هـذه المنطقة التي اجتاحها الاسكندر المقدوني وحكمها خلفاؤه من بعده الى ان وقعت تحت سيطرة الرومان ثم كان ميلاد المسيح الذي حاربه اليهود حتى انتهى بهم الامر الى اغراء الحاكم الروماني بـه لصلبه كما تقول العقيدة المسيحية ، والمهم ان نهاية المجتمع اليهودي تحققت

على يد طيطوس الروماني أولا عام ٦٦ ميلادية ثم اجهز هدريان بعد ذلك بقليل على البقية الباقية من اليهود وحرم عليهم الاقتراب من منطقة القدس ، فعاشوا مشردين في الآفاق منــذ هــذا القرن الميلادي الاول لا يكادون يتحدثون عن فلسطين الا في احلامهم وخيالاتهم حتى القرن التاسع عشر الميلادي حيث بدأت هذه الاحلام تتحول الــى أقوال بنشأة الصهيونية الحديثة ، ولكننا قبل ان نتحدث عن هذه الصهيونية لا مناص من الاشارة لحادثين خطيرين في تاريخ فلسطين ، الاول ، فتح المسلمين لهــا عام ٦٣٦ ميلادية ، والثاني ، استيلاء الصليبيين على القدس ثم استردادها منهم على يد صلاح الدين الايوبي •

فتح المسلمين لفلسطين وبيت المقدس :

فتوحات الاسلام ايام الخلفاء الراشدين عقب وفاة سيدنا محمد اشهر من ان تعرف ، حيث استطاعت الجيوش الاسلامية ، على قلة عددها ، ان تهزم الامبراطورية الفارسية ، والامبراطورية الرومانية • ويهمنا الآن من هذه الفتوحات فتح بيت المقدس بالذات ، ولبيت المقدس أهمية خاصة عند المسلمين اذ أنه يحتوي على المسجد الذي أسري بسيدنا محمد اليه ليلــة الاسراء ، كما يتضمن الصخرة التي عرج من فوقها سيدنا محمد الــى السماء ، وحيث بنى عليها عبد الملك بن مروان الخليفة الاموي قبة رائعة اشتهرت منذ ذلك الوقت باسم قبة الصخرة وذلك عام ٦٩٠ م ، أما المسجد الحالي الذي يطلق عليه اسم المسجد الاقصى فهو من تعمير صلاح الدين الايوبي بعد انتزاع القدس من ايدي الصليبيين ، وقد انشأ عمر بن الخطاب مسجدا تجاه كنيسة القيامة ليتفادى تحويل كنيسة القيامة الى مسجد • ونرى ان نثبت هنا نص عقد الصلح الذي عقده عمر بن الخطاب مع زعيم القدس الديني لنرى كيف ان أحد شروطه التي قبل المسيحيون على أساسها تسليم بيت المقدس لعمر بن الخطاب هو ان لا يسمح لليهود بسكنى بيت المقدس وهذا هو نص الاتفاقية :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

هذا ما اعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء (القدس) من الامان ، أعطاهم امانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانها سقيمها وبريئها وسائر ملتها انه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص منها ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار احد منهم ، ولا يسكن ايلياء معهم أحد من اليهود » •

ويمضي العهد بعد ذلك ، متضمنا حقوق أهل القدس وأنهم بمجرد دفع الجزية (التي لم تكن تتجاوز دينارين) يصبحون مثل المسلمين لهم ما لهم من الحقوق وعليهم ما عليهم وختمت الوثيقة بالعبارات التالية :

وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا اعطوا الذي عليهم من الجزية •

كتب وحضر سنة خمس عشر (هجرية)

وشهد على ذلك خالد بن الوليد ، عبد الرحمن بن عوف ، عمرو بن العاص ، معاوية بن ابي سفيان •

الحرب الصليبية :

ولسنا نريد ان نسهب في الحروب الصليبية التي بدأت في القرن الثاني عشر الميلادي وحسبنا ان نشير اليها وكيف بدأت بسقوط القدس في ايدي الصليبيين حيث أجروا مذبحة يندي لها جبين البشرية ونال اليهود حظهم من هذه المذبحة على ما يسجل التاريخ حيث حشروا في كنيستهم واشعلت فيهم النار ، وليس هذا الا نموذجا لما كان يلقاه اليهود على ايدي المسيحيين في كل زمان ومكان ، وليس الا في ظل الاسلام والمسلمين ، ان نعموا بالراحة بل والازدهار •

وقد استرد صلاح الدين بيت المقدس من الصليبيين ، وفي ايام الاشرف خليل في دولة المماليك البحرية سقط آخر حصن للصليبيين في عكا وأصبحت البلاد ملكا خالصا لابناء البلاد الاصليين من مسلمين ومسيحيين،

حيث لم يكن لليهود أي شأن يذكر • ولقد فصلنا القول في كـل هـذه التطورات في كتابنا موسوعة تاريخ مصر ، فليرجع اليه من يريد المزيد من التفصيلات •

انشاء الحركة الصهيونية في القرن التاسع عشر :

ظل اليهود مشتتين في الارض ، ولسنا نريد ان نتعرض لما عاناه اليهود في كل مكان حلوا فيه ، وقد كانوا قد ارتضوا لأنفسهم ما هم فيه من تشتت وفرقة وعذاب واضطهاد ، وعاشوا منطوين على انفسهم وفي المجتمعات الاوربية المسيحية • فلما كان القرن التاسع عشر وهاجت النعرة القومية التي تحدثنا عنها وتآمرت الدول الاستعمارية على الدولة العثمانية واطلقوا عليها اسم الرجل المريض وتنادوا بتقطيع أوصالها ، تحركت شهية نفر من اليهود ، فقاموا يدعون بانشاء دولة يهودية في فلسطين • ولقد قوبلت هذه الفكرة في أول أمرها بأعظم ازدراء من اليهود أنفسهم فقد فهموا معناها ومغزاها قبل أي انسان آخر ، وانها دعوة رجعية عنصرية تهدد اليهود الذين قد بدأوا يطمئنون على حياتهم لأول مرة في ظل دول أوربا الحديثة ، التي أسقطت عنصر الدين مـن حياتها وخشي اليهود ، ان تذكر هـذه الحركة الصهيونية الجديدة ، الشعوب التـي يعيشون فيها ، بأنهم عنصر غريب فيعودون لاضطهادهم ، ولذلك فقد انكروا هذه الدعوة الجديدة ، وظلت لا تزيد على همسات تجري هنا وهناك حتى أواخر القرن التاسع عشر وليس الا في عام ١٨٩٧ انعقد أول مؤتمر صهيوني في مدينة بازل في سويسرا وكان منظمه والداعي اليه هو يهودي نمساوي اشتهر باسم هرتزل واسمه الكامل تيودور هرتزل ، الذي ولد عام ١٨٦٠ في مدينة بودابست من ابوين يهوديين موسرين والف في سنة ١٨٩٥ كتابا اسماه الدولة اليهودية ، وكانت مشكلة اليهود قد اندلعت من جديد اثر بعض المجازر التي حلت بهم في روسيـا القيصرية ، وفي عام ١٨٩٧ كمـا قدمنا نجح هرتزل في عقـد أول مؤتمر صهيوني وأساس هذه التسمية هو الانتساب الى جبل صهيون بالقرب من

مدينة القدس ، وقد حضر هذا المؤتمر ٢٠٤ مندوب عن جمعيات يهودية متناثرة في انحاء العالم • وفي هذا المؤتمر الاول المنعقد في ختام القرن التاسع عشر ، وضعت القرارات التالية التي أصبحت المخطط الذي تابعه اليهود وما زالوا يتابعونه حتى اليوم ، وهذه هي القرارات :

أ — ان غاية الصهيونية هي خلق وطن الشعب اليهودي في فلسطين يضمنه القانون العام اما وسائل تحقيق هذا الهدف فهي :

١ — العمل على استعمار فلسطين بواسطة العمال الزراعيين والصناعيين اليهود وفق أسس مناسبة •

٢ — تنظيم اليهودية العالمية وربطها بواسطة منظمات محلية ودولية تتلاءم مع القوانين المتبعة في كل بلد •

٣ — تقوية وتغذية الشعور والوعي القومي اليهودي •

٤ — اتخاذ الخطوات التمهيدية للحصول على الموافقة الحكومية الضرورية لتحقيق غاية الصهيونية •

وهذه القرارات في غنى عن أي تعليق على ان اللطيف وما هو جدير بالتسجيل في هذه العجالة التاريخية هو ما كتبه هرتزل تعليقا على هذا المؤتمر في مذكراته ، قال :

« لو أردت ان اختصر مؤتمر بازل في كلمة واحدة ، وهذا ما لن أفعله صراحة لقلت : في بازل أسست الدولة الصهيونية ، ولو أعلنت ذلك في هذا اليوم لقابلني العالم بالسخرية والتهكم ولكن بعد خمس سنوات على وجه الاحتمال وبعد خمسين سنة على وجه التأكيد سيرى هذه الدولة جميع الناس » •

هذا ما قاله هرتزل في آخر القرن التاسع عشر ، وقد تعمد اليهود بالاتفاق مع انجلترا ان يكون اعلان الدولة اليهودية في مايو ١٩٤٨ ليكون قد مر على مؤتمر بازل خمسون سنة تقريبا ، لكي يجعلوا من هرتزل نبياً •

بعد مؤتمر بازل :

ليس من مهمتي في هذا الكتاب ان اتتبع جهود اليهود لتنفيذ مخططهم في فلسطين وكيف سعوا لشراء الاراضي وراحوا يهاجرون الى فلسطين فقد كان ذلك يتم في أضيق نطاق ، بحيث ان من كان يتحدث عن الخطر الصهيوني في ذلك الوقت في البلاد العربية ، كان يسخر منه ، وذلك لسببين : الاول ، هو وجود فلسطين في الكيان العثماني ، فلم تكن خطط اليهود على خفائها بالتي تغيب عن الاذهان وكان العرب يتصدون لليهود الذين وفدوا الى فلسطين ، واحيانا بالقوة ، وكانت السلطات الحاكمة تعطف بطبيعة الحال على العرب من سكان البلاد •

على ان السبب الثاني وهو الاهم ، فقد كان من اليهود أنفسهم ، الذين كانوا لا يحبون الهجرة الى فلسطين ، والذين يهاجرون ، لا يرغبون ممارسة الزراعة أو الصناعة ، فهم لم يألفوا في كل حياتهم عبر هذه القرون ممارسة الزراعة أو الصناعة ، فقد اعتادوا اذا كانوا فقراء أن يمارسوا أخس الحرف وأحقرها (يهود الشرق) أو أن يمارسوا حرفة المال عندما يكونون قادرين ، فكانوا هم ملوك المال في كل مجتمع اطمأنوا منه •

وعد بلفور :

وليس الا بعد ان احتل الانجليز فلسطين أن بدأ العمل يجري على قدم وساق لتذليل كل العقبات التي تحول دون تهويد فلسطين وتحويلها الى وطن قومي لليهود بالفعل ، وأرى ان اثبت هنا نص تصريح وعد بلفور الذي كان هو حقا وصدقا بدء نكبة فلسطين •

« ان حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف الى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين وستبذل أفضل مساعيها لتسهيل تحقيق هذه الغاية على ان يفهم جليا انه لن يسمح بأي اجراء يلحق الضرر بالحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها المجتمعات غير اليهودية القائمة في فلسطين ولا بالحقوق أو بالمركز السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الاخرى » • وقد صدر هذا التصريح في ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ •

وغني عن البيان ان القسم الاخير من التصريح الذي يتحدث عن المحافظة على حقوق أهل فلسطين العرب من مسلمين ومسيحيين ، انما قيل لتهدئة خواطر العرب ، فلم يكن الانجليز قد احتلوا فلسطين بعد • وقد عاشت انجلترا بعد حكمها لفلسطين تتحدث عن المحافظة على العهود وأنها لا تستطيع ان تسحب وعد بلفور ولكن وعد بلفور ظل عند انجلترا يساوي تسليم البلاد لليهود مسقطة حقوق العرب التي تعهد التصريح بالمحافظة عليها ، ذلك ان العرب كانت اسلحتهم الشعر والخطب والتحدث عن يعرب ابن قحطان • ومن سوء الحظ ان الدنيا بعامة والانجليز بخاصة يجهلون كل شيء عن يعرب بن قحطان ، بل وما هو اسوأ من ذلك فانهم لا يفهمون الشعر الجاهلي ولا خطب ذي الاصبع العدواني فضلا عن مقامات الحريري وذلك في الوقت الذي كان فيه اليهود يتحدثون مع الانجليز وامريكا بلغة مشتركة لغة المال والمصالح ولغة الديناميت والنسف والقتل اذا لزم الامر كما سوف نرى •

والآن وقد وصلنا بالاحداث من الناحية التاريخية بالانجليز في فلسطين ، وباليهود وقد بدأ هجومهم عليها ، فلنعد الى ذكرياتنا الحية وتجربتنا الخاصة •

الفصل السادس

عز الدين القسام ـ ثورة فلسطين الكبرى ٣٦ ـ ١٩٣٧
محاولة شرائي بمعرفة اليهـود ـ هتلر ينكب فلسطين ـ
قيام الحرب العالمية الثانية

كفــاح مصر الفتــاة :

أسسنا مصر الفتاة في عام ١٩٣٣ وكان علينا بطبيعة الحال ان نواجه مشاكل مصر الملحة ، تسلط الانجليز وتخلف البلاد والامتيازات الاجنبية وتدهور الاحزاب المصرية ولقينا في سبيل ذلك ما لقينا من سجن ومحاكمات ومصادرات ، وهذه هي الفترة التي انضم فيها جمال عبد الناصر الى مصر الفتاة على ما روى ذلك أكثر من مرة باعتبارها مدرسته الاولى في الحياة العامة • ولم تلبث قضية فلسطين ان بدأت تلفت انظارنا ثم تستحوذ على اهتمامنا ، ثم تحتل الجزء الاكبر من نشاطنا ، الى أن أصبحت هي شغلنا الشاغــل •

عزالدين القســـام :

كان أول ما استرعى انتباهنا نحن مواليد القرن العشرين من انبــاء فلسطين ، هــو استشهاد الشيخ عــز الدين القسام ، وهو احد مشايخ فلسطين آمن بوجوب كفاح الانجليز واليهود المسلح ، وأعد فرقا مسلحة في شمال فلسطين ، ولكن سوء الحظ جعله يحاصر قبل ان يبدأ حركته • فأحيط به ورفض الرجل ان يهرب مع امكان ذلك ، كما رفض ان يستسلم ، وظل يقاتل حتى قتل ، فكان لاستشهاده دوي في طول العالم العربي وعرضه، وكان ذلك عام ١٩٣٥ فلم تلبث الثورة ان اندلعت في فلسطين في العام التالي ١٩٣٦ لتستمر ثلاث سنوات ولا يوقفها الا اندلاع الحرب العالمية الثانية ، على انني قبل ان اتعرض لاحداث هذه الثورة ودورنا فيها ، أريد ان اشير الى حادث زج بي في العالم العربي وقضاياه ، وذلك بمناسبة ادائي فريضة الحج عام ١٩٣٤ •

مع الملك عبد العزيز آل سعود :

في عام ١٩٣٤ قصدت الى بيت الله الحرام بنية الحج والعمرة ، وقد تجلت نعمة الله علي في هـذه الحجة اذ ذهبت اليها خالي الوفاض تقريبا وعدت منها وانا محمل بما كان يعتبر في هذا الزمان بالنسبة لنا كبيرا وهو (ثلثمائة جنيه) مما أعطانا دفعة جديدة في كفاحنا .

وقد كانت الرحلة للبلاد المقدسة خير ما يكشف لي عن وحدة العالم العربي بلغته ودين الاكثرية الساحقة فيه ، فقد كان خطاب ألقيته في حضرة الملك عبد العزيز آل سعود ، هو ما قربني الى قلبه وجعله يعتبرني بمثابة أحد ابنائه ، وقد ظلت هذه الرابطة تنمو وتقوى الى ان مات عبد العزيز آل سعود وهو أقوى وانجح شخصية عرفها العرب في عصرهم الحديث ، وقد كانت حياته سلسلة انتصارات ، وحسبه أنه استطاع ان يبقى علـى الحياد خلال الحرب العالمية الثانية مع ضغط الجانبين المحاربين عليه ممـا سأعود للحديث عنه ، وفي هذه الحجة تعرفت الى السيد سعدالله الجابري وجميل مردم زعيمي سوريا وقد كانا ملتجئين للسعودية ، كما تعرفت الى الامير السنوسي الذي أصبح فيما بعـد ملك ليبيا المستقلة وكان ممـن قابلوني في هذه الحجة وصار فيما بعد أحد وزراء العراق السيد عبد المجيد القصاب ، وهكذا صافحت الحركة العربية يدا بيد منذ وقت مبكر ولمست باليد ماذا تعنيه وحدة اللغة والمشاعر .

ثم كانت ثورة فلسطين عـام ١٩٣٦ والحق انـه منذ انعقد المؤتمر الصهيوني الاول فقد تنبه الفلسطينيون للخطر الصهيوني ، بحيث نجـد مقالات في جريدة تدعى الكرمل تحذر وتنذر من الخطر الصهيوني وقد قامت خطة اليهود على شراء الاراضي بثمن مرتفع ومع ذلك فقـد قاوم صغار المزارعين هـذه المحاولة ، ولكن كبار الملاك وخاصة ممـن كانوا يعيشون خارج فلسطين ، باعوا أراضيهم وعلى أية حال فقد ظلت هـذه المحاولة في اضيق نطاق ما بقيت فلسطين تحت الحكم العثماني ، فلمـا استولى الانجليز على فلسطين بدأوا يخلقون الظروف والاوضاع التـي

تمكن لليهود فبدأوا ببيع اراضي الحكومة لليهود ، ثم شرعوا في ضم الاراضي المحيطة بالمدن الى نطاق هذه المدن ليفرضوا عليها ضرائب تثقل كاهل ملاكها الفقراء فيضطرون لبيعها لبعض السماسرة الذين كانوا يعيدون بيعها لليهود ، وفي ذلك الوقت بدأت هجرة يهودية منظمة لفلسطين وكان الفوج الواحد يتجاوز بضعة آلاف ، ولم يقصر الشعب الفلسطيني في الاحتجاج ورفع اصوات الاعتراض ، ولكن الانجليز لم يأبهوا لذلك ، وقد رأينا كيف انهم وضعوا على رأس حكومة فلسطين انجليزيا يهوديا عرف بتعصبه للصهيونية وهو هربرت صمويل ، وقد اعتبر ان اختياره من دون الانجليز جميعا ، بالرغم من شهرته الصهيونية ، هو الرغبة في ارهاب عرب فلسطين وحملهم من أول وهلة على الرضاء بالامر الواقع وقبول العيش في ظل اليهود فعلا والانجليز اسما .

وكان الشعب الفلسطيني مدركا لذلك كله ، وكان في حالة غليان مستمر وانفجارات من حين لآخر وقد اشرنا من قبل الى انفجار ما اشتهر باسم حائط المبكى ، وكان ذلك عام ١٩٢٩ ، ثم كان انفجار عز الدين القسام الذي كشف عن استعداد عرب فلسطين لامتشاق السلاح ضد انجلترا ، ثم كانت ثورة فلسطين الكبرى والتي استمرت ثلاث سنوات متصلة ، من عام ١٩٣٦ حتى عام ١٩٣٩ ولم يوقفها الا قيام الحرب العالمية الثانية واستعداد انجلترا لدك فلسطين بأسرها على رؤوس من فيها من السكان العرب بدعوى المحافظة على كيانها ، خاصة وان اليهود سارعوا للتطوع في الجيش الانجليزي على أن يكون لهم فيلقهم الخاص اليهودي وهو الذي كان نواة جيش الدفاع الاسرائيلي (الهاجاناه) ونعود لثورة ١٩٣٦ فقد كان من الممكن ان لا تطغى على كفاحنا داخل مصر ، ففي ذلك الوقت كان الانجليز يحشدون الاحزاب المصرية وعلى رأسها الوفد لعقد معاهدة الصداقة والتحالف مع مصر استعدادا للحرب العالمية الثانية التي كانت نذرها تلوح على الافق بمناسبة غزو ايطالياللحبشة ، أقول كان من الممكن ان تلهينا

الاحداث المحلية في مصر عن فلسطين ، خاصة وقـد كنا الحزب الوحيد الذي انفـرد بمعارضة معاهدة سنـة ١٩٣٦ وأسميناها معاهدة الخزي والاحتلال ، وتحملنا في سبيل ذلك مـا تحملنا مـن محاكمات وسجون ومصادرات ولكن قضية فلسطين وثورة العرب سرعان ما فرضت نفسها فرضا على صفحات مجلة مصر الفتاة ، لصدق هذه الحركة ، وبسالة عرب فلسطين في مقاومـة الانجليز الذين كانـوا خصومنا المشتركين في مصر وفلسطين على انه والحق يقال كان في مصر مجاهد فلسطيني ، يذكر دائما بقول الشاعر :

وليس على الله بمستبعد ان يجمع العالم في واحد

وذلك هو المجاهد الامين الاستاذ محمد علي الطاهر رئيس اللجنة الفلسطينية في مصر وهو أحد مجاهدي فلسطين كان موظفا تحت ظـل حكومة الانتداب الانجليزية ، فكان من أوائل الذين تنبهوا لخطط الانجليز الرامية الى تهويد فلسطين ، فأبت عليه نفسه الحرة الكريمة ان يكون احد موظفي الحكومة الذين يساهمون في تحقيق هذا المخطط فقدم استقالته من الحكومة وقد كانت هذه تضحية باهظة في ذلك الوقت ، وهاجر الى مصر وأصدر مجلة الشورى التي سرعان مـا أصبحت القلب النابض في مصر ، وليس فقط لثورة فلسطين وسوريا وكل الحركات التحررية في العالم العربي ، بل أصبحت اللسان الناطق لكل الاحرار في أي ركن من اركان العالم ، وعندما صدرت مجلة مصر الفتاة ، كانت جريدة الشورى معطلة بأمر السلطات الانجليزية في مصر ، فوضعنا مجلة مصر الفتاة تحت أمره ، وهكذا انخرطت جريدة مصر الفتاة منذ اليوم الاول في القضايا العربية بعامة وفلسطين بخاصة ، فلما ان كانت ثورة فلسطين عـام ١٩٣٦ شرع الاستاذ الطاهر يمدنا بأخبارها مـن وجهة نظر المجاهدين ، وكان يمدنا (بكليشهات) صور فظائع الانجليز وبسالة المجاهدين وسرعان ما أصبحت قضية فلسطين وثورة شعبها العربي تستغرق معظم صفحات المجلة .

هتلر واثره في انجاح تهويد فلسطين :

في هذه الاثناء نكب العالم برجل مجنون بالسلطة والعظمة ، ومـا أسماه تفوق الجنس الالماني على بقية أجناس العالم وبالتالي حقه في سيادة أوربا كلها والعالم كلـه اذا أمكن واعتبر اليهود الذين هـم من الجنس السامي السبب في هزيمة المانيا في الحـرب العالمية الاولى ، فراح يصب جام غضبه عليهم ، ويضطهدهم ويصادر اموالهم ، ويعتبرهم جنسا متخلفا ، ولم يلبث بعد ان اشعل نيران الحرب ، ان راح يطاردهم في كل مكان تدخل اليه جيوشه وكان قد احتل أوربا كلها ، وبلغ به الهوس ان فكر في ابادة اليهود ويقولون انه انشأ افرانا كان اليهود المناكيد يساقون اليها سوقا ليحرقوا والمهم ان ذلك كله كان على حساب عرب فلسطين ، ذلك ان الحركة الصهيونية التي كانت تجد أشد المقاومة من اليهود انفسهم قبل أي انسان آخر ، بدأت تقابل بتأييد اجماعي من كل يهود العالم ، وبدأ كل يهودي يصبح صهيونيا ، ومن هنا فقد تحول يهود مصر الى صهاينة وبدأت تجربتي في الاحتكاك بهم وادراج اسمي في قوائمهم السوداء فبدأوا يتعقبونني في جميع انحاء العالم انى ذهبت وحيث سرت ، حتى طالبوا برأسي بمناسبة حركة حريق القاهرة ، التي ان لم يكن الانجليز والملك هم الذين دبروها ، فعلى الاقل كما سوف نرى كانوا عنصرا في تأجيجها وتصعيدها .

ولأبدأ الآن في قصتي مع الصهيونية .

محاولة الصهيونية شرائي :

في هذه الفترة اتيح لي ان أجرب وألمس باليد الاسلوب الذي يعمل به الصهاينة للسيطرة على جمهرة السياسيين ومن بيدهم مقاليد الامور في أي مكان في العالم ، وكيف انهم اذا اشتروا شخصا معارضا لسياستهم أو خططهم لا يطلبون منه أن يؤيدهم جهارا وانما يطلبون منه ان يحصر معارضته في دائرة يحددونها له ، وهم لا يتعجلون أي أمر من أمورهم ، فالوقت امامهم طويل ، لا يعد بالايام أو بالاسابيع وانما بالسنين وعشرات السنين ، وقد رأينا كيف ان هرتزل مع شديد تعلقه بفكرة الدولة اليهودية،

لم يشأ أن يعلن عـــن الفكرة في مؤتمر بازل ، وكيف ارجأ الامر الى خمس سنوات قادمة ثم أكد ان الدولة اليهودية ستكون حقا واقعا بعد خمسين سنة ، فاليهود ليسوا في عجلة مـــن تنفيذ خططهم ، وحسبهم انهـــم على الطريق • ولنبدأ الآن القصة من بدايتها •

عقد اعلانات مع مجلتنـــا :

كنا في عام ١٩٣٨ والاضطهاد النازي لليهود علـــى أشده والثورة الفلسطينية على الانجليز في أوجها ، ومجلتنا تطفح بالمقالات النارية ضد الصهيونية وما يرتكبه الانجليز لحسابهم في فلسطين وجاءني محام من اكبر المحامين في مصر آنذاك ، وكان يقف بجوارنا ويصبح نصيرا لنا ، قال لي هذا المحامي : اعندك مانع من مقابلة صديق يهودي لي كان يصدر مجلة للشئون المالية في اسكندرية واذا لـــم تخني الذاكرة فقـــد كانت تسمى (لانفورماتير) ولما كان اليهود قد بدأوا يملأون الدنيا صياحا ان كل من يهاجم الصهيونية فهو يردد صيحة هتلر ضد السامية ، ولما كنت بطبيعتي ومزاجي انسانيا بكل ذرة من ذرات جسدي لا أعرف تفرقة بين الاجناس أو الاديان وقد ظهر ذلك جليا في مبادىء مصر الفتاة العشرة حيث كان أحدها ينص على ما يأتي :

تطهر وصل لربك • وام المسجد يوم الجمعة ان كنت مسلما ويوم الاحد ان كنت مسيحيا ، ويـــوم السبت ان كنت يهوديا • وقـــد حاول الكثيرون في ذلك الوقت ان يجعلونا نحذف مـــن المبدأ ، عبارة ، ويوم السبت ان كنت يهوديا ، ولكنني رفضت باصرار حذف هذه الفقرة ، خاصة وانها كانت قد صيغت منذ نشأة مصر الفتاة ، حيث لم تكن مشكلة اليهود قد اخذت كل هذه الحدة ، فكان طبيعيا ان لا امتنع عـــن مقابلة يهودي مصري ، وقد تمت في مكتب صاحبي المحامي الكبير ، وسألني اليهودي ، هل انت ضد اليهود كيهود ، فقلت له انني باعتباري مسلما لا يمكن ان أكون كذلك ، وباعتباري ساميا فلا يمكن ان اخاصم اليهود باعتبارهم من

الجنس السامي ، ثم لفت نظره الى المبدأ الذي اشرت اليه وكيف سوينا بين الدعوة للتمسك بالاديان الثلاثة ، فسألني الرجل اذن علام هذه الحملة الشعواء على يهود فلسطين • فقلت له اننا لا نهاجم يهود فلسطين الاصليين ، والذين عاشوا ما عاشوا بين ظهراني المسلمين ، معززين مكرمين لم يتعرضوا لاضطهاد في أي يوم من الايام ، أما هؤلاء اليهود الذين جاءوا الى فلسطين مستعمرين ، فاننا ليس فقط نعاديهم ، بل سنحاربهم اذا لزم الامر ، وأسرع الرجل يقول لا علاقة لنا بالصهيونية ، فقلت اذن لا خلاف بيننا ، واليهودي المصري هو كأي مواطن له ما لنا وعليه ما علينا ، فقال الرجل هل مجلتك على استعداد ان تنشر لنا اعلانات ، فقلت ان مجلتنا ملتزمة بأنه لا تنشر أي اعلانات الا لتاجر مصري ، أو عن بضاعة مصرية وفي هذه الحدود ننشر اعلانات اليهود المصريين ، فقال الرجل سأعقد عقدا بألف جنيه في السنة ، واعترف انني ذهلت من ضخامة المبلغ وخفت في نفس الوقت فقد كان هذا المبلغ فوق مستوى ادراكنا ، لقد كانت مجلتنا تطبع في كل اسبوع بخمسة عشر جنيها أو عشرين وقد جعلني الخوف من ضخامة المبلغ وأنه سيدفع مقدما ، الى ان لا أمس المبلغ وطلبت من صاحبي المحامي ان يحتفظ به عنده حتى يتم تنفيذ العقد وتتبين كيف تسير الامور •

محاولة اغراقنا بالمـال :

وفوجئت في اليوم التالي لعقد الاتفاق بتلفون المجلة يدق بصورة متوالية وكلها من كبريات المتاجر اليهودية في مصر ، شيكوريل ، شملا ، بنزيون ، داود عدس • وكلها تطلب منا ان نرسل مندوبنا ليأخذ اعلانا وكأن كلمة السر قد اعطيت لهم فراحوا يتنافسون في نشر الاعلانات ، ولما سألنا اذا كان نشر هذه الاعلانات جزءا من العقد الذي أبرمناه ، قالوا ان لا علم لهم بهذا العقد ، ولكنهم يريدون نشر اعلاناتهم ودفع الاجرة التي نقدرها •

الياس شقـال :

وجاءني رجل لا بد انه كان هو الصهيوني المختص بالسيطرة علـى

الصحف المصرية وقال لي انه يدير مكتب صحافة ويريد منا ان يشترك في الجريدة بعشر نسخ ويريد ان يبعث لنــا من حــين لآخر ببعض بيانات لننشرها ، وذلك في مقابل عشر جنيهات يدفعها كل شهر ، فقلت له ولكنك تعرف سياسة المجلة والحزب ، نحن اعداء للصهيونية وحرب عليها ، ولن نغير حرفا واحدا مما نكتبه أو نقوله ، فقال الرجل : مــا لنا يــا سيدي وللصهيونية ، نحن اعداء لها كما انتم اعداء ، فنحن يهود مصريون نريد أن نعيش في أمن وسلام كمــا عشنا حتى الآن • ولكني أدركت على الفور الخطة التي تحاك لي وهو أسلوب اليهود في كل عصر وزمان ومكان وهو ان يشتروا ــ أعتى خصومهم ــ بالمال ، وتعمدت ان اضاعف في الحملة على الصهيونية ، وان احذر من خطرها على مصر بالذات ، وجاء الياس شقال ومعه نسخة من آخر اعداد مصر الفتاة وقد خط بالاحمر تحت كل سطر لــه عليه ملاحظة ولما كنت قــد تعمدت ان أتصاعد بالحملة علــى الصهيونية ، فقــد كانت المجلة كلها مخططة بالاحمر ، وحاول الرجل ان يتكلم ولكني سددت عليه الطريق وقلت له انني لا أسمح له ان يقول أي ملحوظة فقد اتفقنا منــذ البداية ان لا علاقة لهم بالصهيونية ، فاستدرك الرجل قائلا انه يعرف حدوده وليست له أي ملاحظات ، وكان من العجب ان تضاعفت الاعلانات في العدد التالي ، وبدأت خطتهم تتكشف لي فهم يريدون أولا أن أبدأ في ادخال اموالهم التي ستتدفق على المجلة في حسابي ، فأشرع في رفع مستوى حياتي ورفع مستوى المجلة ، بحيث أصبح معتمدا عليهم اعتمادا كليا ، وكذلك حياة المجلة ، وعند هذا الحد وبعد ان يتأكدوا منه ، يشرعون في املاء أوامرهم وتوجيهاتهم وهذا هو اسلوبهم مع كــل الصحف الكبرى فهذه الصحف لا تعيش الا على الاعلانات ، وهم ملوك الاعلان في كل مكان ويعملون في جميع ارجاء الدنيا بنظام خاص وتعاون وترابط ، وقد عشنا طويلا الى الحد الذي رأينا فيه بعض الزعماء يرفعون الصوت ضد اسرائيل ، بالاتفاق مــع اسرائيل وذلك لخداع شعوبهم ، وليكونوا أكثر قدرة على تحقيق المصالح الحيوية لاسرائيل •

ولنرجع الى سياق قصتنا ، فقد تعمدت في العدد الثالث بعد الاتفاق وبعد تدفق الاعلانات أن تكون الحملة أشد وأشد ، وجاء من جديد الياس شقال وهو يحمل المجلة المخططة بالاحمر ، وفي هذه المرة لم يستطع ان يحبس الكلام فقال اننا اتفقنا على ان تكتب ما تريد ، ولكنني لاحظت انني منذ اتصلت بك تضاعفت الحملة وأصبحت أشد عنفا ، فهلا تخشى ان هذه الحملة من الاثارة تنعكس على يهود مصر •

المصارحة :

ولم أكن انتظر الا هذا وبادرت أقول له ، من حسن الحظ انني اكتشفت خطتكم قبل فوات الاوان ، ومن حسن الحظ انني لم ألمس هذه الالف من الجنيهات التي حاولتم ان ترشوني بها ، اتظن انه من الطبيعي وبمحض الصدفة ان تتهافت المتاجر اليهودية على الاعلان في جريدتنا ، وان تشترك انت بعشرة جنيهات في الشهر ، وان تبرموا معي عقدا بألف جنيه لنشر اعلانات لم أر منها حتى اعلانا واحدا ، فكل الاعلانات التي تجيء للمجلة يدفع أصحابها قيمتها ، انني اعلنك ان العقد الذي ابرمته مفسوخ وعليكم ان تستردوا الالف جنيه من صاحبكم المحامي ، فهي لا تزال عنده ومنذ العدد القادم لن اقبل نشر اعلان ليهودي غير مصري أو مصري وسأعتبر منذ اليوم أي يهودي صهيونيا وتظاهر الرجل بعد هذا الانفجار بشيء من الانكسار أو بالاحرى تظاهر به ، وأسرع يعرب عن اسفه وانني لن أراه مرة ثانية ، وسترد الاعلانات كما كانت ترد ، ولاكتب ما اشاء ان أكتب • وانصرف الرجل وهو يشعر بالندم من غير شك اذ تسرع ولم يدع لي الوقت الكافي كما هي خطتهم لأتعود على النعيم ولتتضخم مجلتنا الى الحد الذي يجعلها غير قادرة على الحياة بدون الاعتماد على اعلاناتهم •

وفي العدد التالي نفذت ما قلته لالياس شقال فكتبت القصة السابقة على صفحات المجلة واعلنت اننا نرفض نشر أي اعلان ليهودي حتى ولو كان مصريا فكلهم صهاينة •

وبعد اسبوع زارني الاستاذ رفيق الحسيني وكان يعمل سكرتيرا للحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين وزعيم ثورتها وهو يحمل خطاب شكر وتحية لمصر الفتاة وكان الخطاب مصحوبا بخمسين جنيها ولست أظن انني فرحت في حياتي كلها بأي مبلغ من المال فرحي بهذه الخمسين جنيها ، وقد اعتبرتها بمثابة رسالة من الله عز وجل ، فقد كانت المجلة في حالة شديدة من العوز حتى كنا مهددين بالتوقف ، وخاصة بعد ان وقفت من اليهود هذا الموقف ، وكان كل تجار الورق الذين نتعامل معهم من اليهود ، فجاءت هذه النجدة الالهية في وقتها ومضينا في سياستنا في محاربة الصهيونية اشد عزما واصرارا بعد ان اعتبرنا ما حدث رسالة الهية .

* * *

الفصل السابع

مؤتمر المائدة المستديرة في لندن ، وفد مصر برئاسة علي ماهر – الكتاب الابيض – حملة شعواء – اندلاع الحرب – سفر مصطفى الوكيل – ثورة العراق – اعتقالنا

الثورة الفلسطينية الكبرى :

اندلعت ثورة العرب الكبرى على الانجليز سنة ١٩٣٦ وظلت الثورة مشبوبة طوال ثلاث سنوات كما قدمنا وقد أظهر فيها الشعب الفلسطيني كل ضروب البسالة والمقاومة والتضحية ، فمن اضرابات عامة تشمل البلاد كلها ومن مقاومة سلبية كالامتناع عن دفع الضرائب في بعض الاحوال ، والمقاومة المسلحة أولا وأخيرا سواء في المدن أو في الجبال ، ووقف اليهود على الحياد ، ليتولى عنهم الانجليز ضرب العرب وانهاكهم ، وقد استخدم الانجليز أقسى أنواع القمع واشرسها فكانوا على سبيل المثال ، اذا وقع حادث اعتداء على احدى سياراتهم أو دورياتهم ، رسموا دائرة حول مكان الحادث . واعتبروا كل السكان العرب داخل هذه الدائرة مسئولين عن الحادث وراحوا يعاقبون الكافة بشتى صنوف العقوبات فمن فرض غرامات مالية باهظة ، الى اعتقال بعض الشباب ، واخلاء بعض المساكن من شاغليها ، ثم هدمها وغير ذلك من الاساليب التي طبقها هتلر خلال الحرب ضد مقاوميه من السكان المدنيين في البلاد الاوربية التي احتلها فاعتبرت اعماله ضربا من ضروب الوحشية يندى لها جبين الانسانية وقد تسارع المجاهدون من سائر البلاد العربية للوقوف بجوار مجاهدي فلسطين واشتهر من هؤلاء المجاهدين فوزي القاووجي ، وعارف عبد الرزاق ، ومن الفلسطينيين يوسف دره ، وهو احد افراد اسرة الاستاذ محمد علي الطاهر الذي قدمت اسرته واخواه على وجه التحديد شهداء في هذه الثورة .

محاولة الالتفاف :

وأخيرا عندما عجز الانجليز عن القضاء على الثورة ، اسرعوا كعادتهم

للالتفاف حولها بأسلوبهم الناعم ، فدعوا الى مؤتمر مائدة مستديرة يعقد في لندن يحضره مندوبون عن عرب فلسطين ومندوبون عـن سائر البلاد العربية ، وقد كانت هذه أول مرة يعترف فيها بأن قضية فلسطين اصبحت قضية العرب جميعا ، والحق ان هـذا هو فضل فلسطين على العرب ، اذ وحدت مشاعر العرب، ولولا فلسطين ونكبة فلسطين لحاربت الدول العربية بعضها البعض ، وسنرى فيما بعد كيف انه حتى قضية فلسطين وصلت الى نقطة لم تحل دون ان يقتل العرب بعضهم بعضا ٠

مؤتمر لنـدن :

وارسلت الدول العربية المستقلة والواقع منها تحت النفوذ الانجليزي كمصر والعراق وفودها كما ارسلت السعودية واليمن وفدا ، وهكذا كانت انجلترا هي أول من أبرز الوحدة العربية ، وسنرى فيما بعد أنها هي التي دعت الدول العربية لتأسيس الجامعة العربية ٠

وكان وفد مصر برئاسة علي باشا ماهر رئيس الديوان الملكي في مصر كما كان الوفد الفلسطيني برئاسة الحاج أمين الحسيني الذي بدت زعامته على فلسطين شيئا مؤكدا ، وسرعان ما أصبح علي ماهر باشا بحكم كونه رئيس الوفد المصري ، وبحكم منصبه ، وفوق ذلك وقبل ذلك بحكم ذكائه وألمعيته هو رئيس الوفود العربية كلها ، وقد عرضت انجلترا على العرب عروضا لحل قضية فلسطين فرفضوها كلها تحت تأثير الحاج أمين الحسيني ، ولكن علي ماهر كان ميالا لقبول المقترحات البريطانية ولكن بقية الوفود رفضت ٠

وعلى الرغم من أن علي باشا ماهر كان السياسي الوحيد الذي تربطنا به خير الروابط ، وكنت أنا شخصيا أعجب به أشد الاعجاب واعتبره اكفأ من عرفت من السياسيين القدماء ، وكنت أعلّق عليه أعظم الآمال بالنسبة لمستقبل مصر ومستقبل حركتنا بالذات ، فقد سايرت موجة التطرف التي كانت سائدة وهاجمت علي باشا ماهر هجوما شديدا ٠

استقلال فلسطين :

اما العروض البريطانية فكانت تتلخص في تحديد الهجرة اليهودية في الخمس سنوات التالية بـ ٧٥ ألف يهودي ، علـى ان يعلـن استقلال فلسطين بعدها وتسلم السلطة الى اهلها من العرب واليهود ، على ان يكون لليهود ادارتهم الخاصة في مناطقهم وللعرب ادارتهم على ان يستظل الجميع بظل دولة فلسطين المستقلة ٠

خيـانة :

ولقد اعتبرنا في حينه ان مجرد السماع لهذه المقترحات خيانة ، وكنا نستفظع فكرة السماح لـ٧٥ ألف يهودي بالهجرة الى فلسطين ونعتبرها كارثة لا تستطيع عقولنا استيعابها وعندما استرجع هذه الذكريات أشعر بالاسف لموقفنا ، أسف يبلغ الحاق الندم وليس يخفف من هذا الشعور الا السؤال التالي : لنفرض ان العرب قبلوا فهل كان اليهود يقبلون وهل كانت أطماع اسرائيل تقف عند هذا الحد ؟ هذا هو السؤال وليس من الانصاف للحقيقة المجردة ان نجزم في الاجابة على هذا السؤال ، ولكن هناك حقيقة مؤكدة وهي ان الصهيونيين يسيرون على خطة مرسومة ، ولن يحيدوا أبدا عن تنفيذها كلما واتتهم الفرصة ، وهم على استعداد أن يقبلوا أي مغنم يقدمهم خطوة للامام ، وليس عندهم أي مانع من الانتظار والتربص بضع سنين ، حتـى يهضموا الكسب الذي غنموه ويستوعبوه قبل ان ينقضوا من جديد لتحقيق مغنم آخر ٠

وعلى أية حال فقد انتعشت الامال بمؤتمر لندن للمائدة المستديرة ، وبدأ يلوح على الافق ان العرب في طريقهم لكسب قضيتهم ٠ على أنه من سوء الحظ ان اندلعت نيران الحرب العالمية الثانية ، فوضعت حدا لثورة فلسطين بطريقة آلية ، فقد قامت حرب كان مقررا لها ان تحسم مصير كل شعوب العالم على وجه أو آخر حسب الجانب الذي سينتصر ، وكان هتلر قد بدأ يتحدث عن كفاح الشعب العربي في فلسطين ويشيد بهـــذا

الكفاح ، ويندد في ذات الوقت بالانجليز أما بالنسبة لليهود فقد كانت عواطفه ضدهم أشهر من أن نتحدث عنها ، ولقد بدأ هتلر الحرب بصورة موفقة ، اذ اكتسح كل من اعترض سبيله في أيام واحيانا في بضع ساعات ، ووقف عرب فلسطين كبقية شعوب العالم في انتظار ما يسفر عنه الصراع •

نحن وثورة العــراق :

أصل الآن الى اعظم حادث في تاريخ العرب في مطلع الحرب العالميــة الثانية ، والذي لو قدر له النجاح لغير اتجاه التاريخ ليس فقط في البلاد العربية ، بل بالنسبة لنتيجة الحرب كلها واعني بهذا الحدث ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق ضد الانجليز ، والذي عندما فشل هتلر في نجدتها في وقت مبكر اعتبرته قد خسر الحرب مع انــه كان فــي أوج أمجــاده وانتصاراته على ان ذلك كله يستوجب منا ان نعود قليلا الى الوراء لنرى أبعاد هذا الحدث ومدى تردد اصدائه في كل العالم العربي وما علقه عليه من آمال وكيف أصبحنا شركاء في هذا الحدث لاشتراك اعظم شخصية في مصر الفتاة فيه وهو الشهيد مصطفى الوكيل •

الدكتور مصطفى الوكيــل :

كان نائب رئيس مصر الفتاة قبيل اعلان الحرب العالمية الثانية هو الدكتور مصطفى الوكيل ، وهو لم يكن نائب الرئيس الا تواضعا منه ، فقد تنازلت عن رئاسة الحزب له ايمانا مني انه يفضلني في كل شيء ، ولكنه أبى ذلك واستنكره وأعلن أنه سيغادر الحزب لو اصررت على اقتراحي ، وشخصية مصطفى الوكيل وعظمته وفدائيته في حاجة الى مؤلف ضخم ، كنت قد عقدت العزم على تأليفه قبل مرضي وشرعت فيه بالفعل لولا ان دهمني المرض • والآن فلنبدأ حديثنا •

العراق زعيم العروبة :

كان العراق في الثلاثينات هو زعيم العروبة بلا منازع ، فقد أشرنا من

قبل الى أن انجلترا نصبت فيصل بن الشريف حسين ملكا على العراق كما قدمنا وسرعان ما أحاط بفيصل كل الذين اشتغلوا بالقضية العربية ، لا فرق فيهم بين من اصبح فيما بعد سوريا أو حجازيا أو لبنانيا أو مصريا ، فقد كان الجميع في ذلك الوقت لا يعرفون لهم جنسية الا انهم عرب ، فقارن ذلك بما صار اليه الحال في الستينات، حيث أصبحت البلاد العربية في حالة خصام دائم ، وكانت العراق هي أول بلد عربي يعلن الانجليز فيه الغاء انتدابهم ، ويبرمون مع الملك فيصل معاهدة يعلنون فيها استقلال العراق ، مع حقهم في الاحتفاظ بقاعدة عسكرية في الحبانية ، وحقهم في استخدام العراق وما يمكن أن يقدمه من تسهيلات خلال الحرب وستكون هذه المواد هي مثار الاختلاف بين الانجليز ورشيد عالي الكيلاني رئيس وزراء العراق كما سنرى .

وأعود للقول ان العراق بحكم هذه الظروف التي شرحتها سرعان ما تحول الى قاعدة العروبة ، وان أنس فلا أنس كيف زار مصر في سنة ١٩٣٢ وفد من شباب العراق فدعوتهم لزيارة مصنع مشروع القرش ولكنهم توقفوا طويلا امام عبارة مصر فوق الجميع،ورددوا أن العروبة فوق الجميع،وهكذا أصبح العراق هو قلب العروبة الخفاق وقلعتها ولهذه الاسباب ، لم أكد أطلع على اعلان في الصحف المصرية عام ١٩٣٩ عن حاجة مدرسة المعلمين في بغداد الى استاذ متخصص في الرياضة براتب قدره اربعون دينارا في الشهر (وكان ذلك يعتبر ثروة في ذلك الوقت) حتى اقترحت على الدكتور مصطفى الوكيل ان يتقدم لشغل هذه الوظيفة فصعق لسماع هذه الفكرة فقد كانت الصداقة والزمالة قد ربطت بيننا الى الحد الذي أصبح فيه كل منا لا يستطيع الاستغناء عن رؤية الاخر ساعة من نهار ، ومن ناحية أخرى فقد كرس مصطفى الوكيل نفسه للكفاح من أجل مصر والعروبة والاسلام وكان يرى ان ذلك يتعارض مع قبوله وظيفة من أي نوع كان ولقد عرضت عليه في مصر كبرى الوظائف فاعتذر عنها مؤثرا حياة الكفاح التي كانت

تفرض عليه معيشة من التقشف الشديد وتخرجه من سجن لتسلمه الى سجن آخر ، ولعله لا يكشف عن مقدار ما كان عليه العراق وقتئذ من زعامة للعالم العربي أكثر من تذكيري له بهذه الحقيقة وأنه سيكون سفيرنا وممثلنا في هذا الموقع العربي ، وقد كان الحاج امين الحسيني زعيم فلسطين قد اتخذ من العراق مركزا له ليقود ثورة فلسطين ، ولكن الشيء الذي حمل مصطفى الوكيل على قبول التوظف في العراق عندما لوحت له بأن حركتنا في حاجة لبعض هذه الاربعين دينارا التي سيقبضها ، وهنا فقط قبل الاقتراح وفوجئت فيما بعد به يرسل لنا الاربعين دينارا كلها ، فلما حاولت ان احتج عليه وطالبته بأن يحتفظ بنصف المبلغ على الاقل ، أصر على موقفه وهدد بأن يرجع الى مصر فورا اذا ارجعت له بعض المبلغ فقد كان هذا هو الشرط الوحيد الذي قبل على اساسه التوظف ، على ان الحوادث تطورت كما سنرى فبدلا من ان يرجع الى مصر كان مقدرا له ان يظل في أوربا طوال الحرب العالمية الثانية وان يستشهد في ختامها في برلين عام ١٩٤٤ ٠

كيف سافر مصطفى الوكيل الى العراق :

كان من المضحك ان تتناقش في مسألة قبول مصطفى الوكيل لوظيفة استاذ في العراق كأن الوظيفة معروضة علينا مع ان المسألة لا تخرج عن اعلان مفتوح لكل من يتقدم وكان الاختيار بين المتقدمين هو لوزارة المعارف المصرية ، ومن حسن الحظ ان وكيل الوزارة في ذلك الوقت كان هو الرجل المصري العظيم عبد الرازق السنهوري وكان صديقا لنا فقصدته في وزارة المعارف (التربية والتعليم) وعرضت عليه الفكرة وكان مصطفى الوكيل معي فسأله السنهوري ، وهل انت على استعداد ان تترك السياسة، فأجابه مصطفى الوكيل ان الجهاد في سبيل الوطن والعروبة والاسلام ليس سياسة ، وانما هو الحياة والواجب ، ولذلك لست أعد بشيء من ذلك ، ولكن الذي اقوله انني اذا عينت استاذا لطلاب فسوف أؤدي واجبي نحوهم ٠

واتنهت المدة التي حددها الاعلان لقبول طلبات التقدم لشغل الوظيفة وجاء الدكتور مصطفى الوكيل في رأس القائمة وكان يتفوق على كل من تقدموا بعشرات المرات ، واستدعى السنهوري ، تحسين العسكري سفير العراق في مصر وعرض عليه النتيجة ، وقال له ان الدكتور مصطفى الوكيل يتفوق ببون شاسع على كل من تقدموا لشغل الوظيفة ، ولكن واجبي يحتم علي ان أنبهك الى ان الدكتور مصطفى الوكيل ، هو نائب رئيس حزب مصر الفتاة وهو متطرف جدا في سياسته ولذلك أرى أن تعرض الامر على حكومتك لترى رأيها في الموضوع ، وأسرع تحسين العسكري يقول : ان هذا الشخص هو عين ما تريده بلادي ، اننا نستطيع ان نشتري الاساتذة العلماء ، ولكن ليس باستطاعتنا الحصول على الوطنيين بسهولة ، وقال السنهوري هذا كلام عظيم ومع ذلك فاني أرى أن تعرض الامر على حكومتك ، فقال تحسين العسكري انني أعرف رأي حكومتي ، واني اتكلم باسمها ، ومع ذلك فسوف اراجعها ولم ينتظر تحسين العسكري طويلا ، فقد اتصل ببغداد تلفونيا وعرض عليهم القضية فكان من رأيهم ان يبادر بارسال مصطفى الوكيل فورا ، دون انتظار بقية النتائج فقد كان العراق قد أعلن عن عشرات الوظائف ، ولم يكن قد تم اختيار شاغليها .

وأعطي مصطفى الوكيل ٤٨ ساعة ليعد نفسه للسفر الى العراق وهكذا لم يمض بين ظهور الاعلان وحصول مصطفى الوكيل على الوظيفة الا بضعة ايام وجاء الوقت الذي سافرت مع مصطفى الوكيل الى مدينة القنطرة على قناة السويس ، ليستقل منها القطار الذاهب الى فلسطين ومنها الى بغداد . وقد فوجئت انجلترا وموظفيها في مصر بهذا الحدث الذي تم بسرعة مدهشة ، فطلبوا من الحكومة المصرية ان تسحب مصطفى الوكيل ، ولكن الحكومة العراقية رفضت معلنة ان مصر لم يحدث ان أوفدت اليها هدية أعظم من مصطفى الوكيل ، وكنت قد زودت مصطفى الوكيل بخطاب الى سماحة مفتي فلسطين الذي كان يقيم في بغداد كما قدمت ، وقد رد علي

شاكرا ومقدرا لعظم الهدية • وكان القدر يخبىء لنا ما لم يكن في الحسبان، ففي ذلك الوقت كانت الحرب قد اعلنت بين انجلترا وألمانيا (سبتمبر ١٩٣٩) واستجلب الانجليز عساكر من الهند لتمر خلال العراق طبقا للمعاهدة المبرمة بين انجلترا والعراق ولكن رشيد عالي الكيلاني الذي كان قد صار رئيسا لحكومة العراق رفض السماح للانجليز بادخال جنودهم الى العراق ، وكانت أزمة وكان صدام وهرب الوصي على عرش العراق (الامير) عبد الاله ، ومعه الملك الشاب الصغير ومضى رشيد عالي الكيلاني في حركته حتى النهاية ، فأصدر أمره للجيش العراقي بمهاجمة القاعدة الانجليزية في الحبانية ، ولم يتردد مصطفى الوكيل في الانضمام لهذه الحركة باسم مصر الفتاة ، فأرسل باسمنا برقية تأييد الى الكيلاني ، وانخرط في سلك المجاهدين وحدثني الحاج امين الحسيني فيما بعد انه كان مصمما على الاستشهاد في هذه الحركة ، ولكنه استطاع ان يكلفه بمهمة في الاذاعة ليصرفه عن الاستشهاد وليس من مهمة هذا الكتاب ان يتعرض لما حدث في ثورة العراق وما منيت به من فشل ذريع جاء على الاكثر نتيجة الخلافات التي برع فيها العرب ، وحسبنا ان نقرر ان الثورة فشلت ، وهرب زعماء العرب الذين انخرطوا فيها ، وعلى رأسهم رشيد الكيلاني وامين الحسيني وفوزي القاووجي ، ووصلوا الى استنبول واستقر بهم النوى في برلين •

اعتقال مصر الفتاة :

وكان قيام ثورة العراق واشتراك مصطفى الوكيل فيها ، ايذانا باعتقالنا في مصر ، فصدر الامر باعتقالي واكثر من عشرين شخصا من قادة مصر الفتاة وعلى رأسهم محمد صبيح ، وكان ذلك في شهر مايو عام ١٩٤١ ، وخلال مدة اعتقالنا كان مصطفى الوكيل هو قلبنا النابض في الحركة العربية والاسلامية ، ومرة أخرى لست اريد أن افيض في استعراض مواقف مصطفى الوكيل البطولية ، وكيف كان رمزا مشرفا ليس لمصر فقط

ولكن للعالم العربي كله، بحيث انه عندما استشهد وقف وزير الماني على قبره يؤبنه فكان مما قاله ، ان مصطفى الوكيل علمهم كيف يحترمون العرب ويقدرونهم ، فقد رفض الامتيازات التي منحت له باعتباره لاجئا سياسيا وابى الا أن يحيا حياة التقشف ، وفي آخر ادوار الحرب بعد ان خسرتها المانيا نهائيا ، وراح الحلفاء يزحفون صوب برلين من الشرق والغرب وراحوا يدكونها دكا منظما بعشرات الالوف من الغارات ، رفض مصطفى الوكيل ان يهاجر من برلين مع من هاجر ، وأبى الا ان يلازم المعهد الاسلامي الذي انشأه هو والحاج أمين الحسيني ، وقد كان هذا هو العمل الوحيد الذي قبل ان يعمل فيه، بعد ان رفض كل الاعمال التي عرضها عليه الالمان، بل لقد رفض ان يقول كلمة واحدة لمصلحة الالمان في اذاعتهم ، على الرغم من الارهاب النازي الشديد (ولقد رسمت صورة لحياة مصطفى الوكيل في رواية الدكتور خالد) وكل الذين عاشوا في المانيا في هذه الفترة يتحدثون عن قداسة مصطفى الوكيل والخدمات التي قدمها للعرب والعروبة افرادا وجماعات في هذه الفترة الدقيقة ، الى ان قدم حياته كلها على مذبح هذه القضية .

الفصل الثامن

العروبة خلال الحرب ـ الجامعة العربية ، استقلال سوريا، دعوتي لانشاء الولايات العربيــة المتحدة ـ في القــدس وعمان ويافــا ، ودمشق ولبنــان .

يـأس ورجـاء :

كان لفشل الثورة العراقية رد فعل سيء على العالم العربي كلـه ، وكانت الحرب تتطور في غير مصلحة المانيا التي علق العرب الامال عـلى انتصارها ، على التنافس بين انجلترا وفرنسا على السيادة على العـرب ورغبة امريكا في وراثة الدولتين معا كل ذلك ساعد على تحريك فكـرة الوحدة العربية ، وكانت انجلترا سباقة لتبني الفكرة ، رغبة منها في ان تحرك العرب بخيط واحد ، فأضاء المستر ايدن وزير خارجية انجلترا في حكومة تشرشل ، الضوء الاخضر امام الفكرة ، ففاجأ العرب ببيان أعلن فيه ان انجلترا لا يمكن الا ان تنظر بعين العطف لرغبة العرب في التعاون فيما بينها ولست أعرف تاريخ هذا البيان بالضبط ولكنه لا بد وانه كان في وقت ما من عام ١٩٤٤ ، ولا بد أنهم أي الانجليز شفعوا هذا التصريح العلني بايعاز من وراء الستار لمصطفى النحاس باشا وقد كان رئيسا لوزراء مصر ، ان يحرك الكرة في هذا الاتجاه ، فشرع النحاس باشا في دعـوة رؤساء الحكومات العربية للتشاور معهم في وضع ميثاق لما أصبح يعرف فيما بعد باسم الجامعة العربية وقد بدأت الخطوة الاولى بالتوقيع على ما يسمى بروتوكول الاسكندرية الذي تطور فيما بعد ، بعد ان سقطت وزارة النحاس باشا وجاءت وزارة برئاسة الدكتور أحمد ماهر ، الى ميثاق جامعة الدول العربية واختير عبد الرحمن باشا عزام اول أمين للجامعة العربية ، فاستقبل ذلك كله بموجة عارمة من التفاؤل .

استقلال سوريا ولبنـان :

كان لسقوط فرنسا السريع في الحرب العالمية الثانية ، رنة ابتهاج في

العالم العربي ، ولكن ديجول الذي رفض الهزيمة ، استطاع ان يحافظ على الامبراطورية الفرنسية وراء البحار بمعاونة الانجليز والامريكان ، وانطلقت الجيوش المتحالفة من فلسطين وشرق الاردن فأحكمتا قبضة فرنسا علـى سوريا ولبنان في نفس الوقت الذي كان الانجليز يحكمون قبضتهم على العراق ولكن فرنسا لم تعد هي فرنسا ، وعندما ثـار الشعب السوري احدى ثوراته المشهورة ، فحاول الفرنسيون ان يطفئوها بالحديد والدم ، فتدخل الجيش الانجليزي وحال دون بطش الفرنسيين بالسوريين ، ولقد اتيح لي أن أزور دمشق في اعقاب هـذه الحركة كما سيجيء ، ونزلت في فندق أوربان بالاس فراحوا يرونني أثر الرصاص الذي انهال على الفندق بقصد قتل من فيه ، والمهم ان سوريا ولبنان قد حصلا على استقلالهما اثر هذا الحادث ، وفي اعقاب الاستقلال حدث صدام بين الفرنسيين وبـين الشيخ بشارة الخوري أول رئيس جمهورية للبنان ، فثارت ثورة المصريين والعراقيين وعرب المشرق كافة تساندهم انجلترا وامريكا ، فأفرج عـن بشارة الخوري وعاد الى منصبه اكثر قوة واستقلالا ومرة اخرى تجلت على الافق الوحدة العربية ، ولم نكن نعرف المخبأ في ذلك الوقت ، وان العرب توشك ان تحل بهم أكبر نكبة في تاريخهم الحديث ، وأعني بهـا نكبـة فلسطين .

جولتي في البـلاد العربية :

في ظل هذه الظروف التي أشرت اليها . في ظل التفاؤل الذي ساد البلاد العربية ، شرعت باسم مصر الفتاة أقوم بجولتي في البلاد العربية ، داعيا لما اسميته « الولايات العربية المتحدة » .

الولايات العربية المتحدة :

لا يوجد أمامي البيان الذي اذاعته مصر الفتـاة قبيـل سفري ولا البيانات التي اذعتها في كل بلد حللنا به[1] فهي منشورة ومسجلة فـي

(1) كان يرافقني في هذه الجولة الاستاذ محمد حلمي الفندور عضو مجلس ادارة حزب مصر الفتـاة .

صحف ذلك الزمان وهي منشورة بكل تفاصيل الرحلة وما القيته من خطب في كل بلد عربي حللت به في مجلة مصر الفتاة وجوهر الفكرة التي تضمنتها البيانات والخطب ان عصر الدول الصغيرة قد انتهى وأصبحنا نعيش في عصر الكتل فثمة الولايات المتحدة الامريكية من ناحية والاتحاد السوفييتي من الناحية الثانية ، وهناك الكومونولث الانجليزي . فعلى العرب اذا ارادوا ان يكون لهم مكان تحت الشمس ان يتحدوا مكونين الولايات المتحدة حيث تحتفظ كل دولة باستقلالها في الشؤون الداخلية ولكن يكون للجميع جيش واحد وسياسة خارجية واحدة .

العراق ونفوذ الانجليز :

وقد حدث قبل بدء الجولة أن وفد الى مصر رئيس حكومة العراق وكان يدعى فيما اذكر حمدي الباجهجي ، وقدر لي ان اجتمع به في حفلة اقامتها السفارة العراقية لتكريمه وعرفني به عبد الرحمن باشا عزام واخطرت رئيس الحكومة برغبتي في زيارة العراق فرحب رئيس الحكومة بذلك وقال انك تنزل في بلدك ، واصدر أمره للقنصل باعطائي تأشيرة الدخول الى العراق ، وبالفعل أعطيت في اليوم التالي بالمجان تأشيرة الدخول الى العراق وكتب عليها زيادة في التكريم «اعطيت بناء على أمر رئيس الحكومة» . وكان من العجب بعد ذلك انني لا أكاد أصل الى دمشق حتى يستدعيني قنصل العراق ليخطرني ان التأشيرة قد الغيت وانه غير مسموح لي بالدخول الى العراق وقد فكرت في لحظة ان اضرب بهذا التحذير عرض الحائط وان أواصل رحلتي الى العراق وليكن ما يكون ، ولكنني عدلت عن ذلك لرغبتي في العودة الى مصر وعدم الغياب عنها طويلا[1] .

دخول فلسطين :

وبدأنا جولتنا بالسفر الى فلسطين فقصدنا مدينة القدس عاصمة فلسطين بالطريق المألوف للسفر وهو القطار من محطة القاهرة الذي كان

(١) لم يقدر لي زيارة العراق الا بعد هذا التاريخ بربع قرن تقريبا (١٩٦٨)

يصل مباشرة الى فلسطين ومن اللطيف اننا لم نجد أي صعوبة للحصول على تأشيرة الدخول الى فلسطين من القنصلية الانجليزية ، في ذات الوقت الذي اعترض فيه ممثلهم في العراق (مستشار وزارة الداخلية الانجليزي) على دخولي العراق ، وهذه سياسة الانجليز البارعة ، فحيث يحكمون مباشرة كما هو شأنهم في فلسطين ، يطبقون القواعد الليبرالية ، أما حيث يحكمون من وراء ستار فلا مانع ان يحملوا حكام العرب على ارتكاب أحط الاعمال .

القدس العربية :

وقد كانت القدس حتى ذلك الوقت عربية حتى النخاع ، وكانت الصحف الوطنية وهي (الدفاع وفلسطين) تصدر في القدس ، وقد رحبت الجريدتان ببياناتنا ، بل وأفسحت لي جريدة الدفاع صفحاتها لاكتب ما أشاء ، وكانت فلسطين في ذلك الوقت مسرحا لثورة يهودية ضد الانجليز ، وحيث كان الانجليز ينكلون بالعرب الابرياء بمجرد وقوع أي اعتداء على احد رجالهم . أو مجرد شروع في اعتداء أو حتى لمحض الشبهة ، فقد كانوا يحتملون من اليهود الضربات الموجعة ، بل والمذلة لكرامة الانجليز ، كأن يقبضوا على نفر من ضباط الانجليز، ويعروهم من ثيابهم، ثم يجلدوهم بالسياط ، ويلقوا بهم عرايا بعد ذلك على قارعة الطريق ووصل بهم الامر الى حد نسف دار المندوب السامي البريطاني حاكم فلسطين ، وفندق كبير كان ينزل به الضباط الانجليز ، ويسمى كنج دافيد أي الملك داود ، وغير ذلك من مئات الحوادث المماثلة والتي كانت تهز الدنيا هزا ، ومع ذلك فقد مرت بدون عقاب من أي نوع كان ، بحجة ان العدالة الانجليزية لم تقبض على نفس مرتكب الحادثة بالذات ، واين كانت هذه العدالة وهي تسحق العرب سحقا لحساب اليهود ، ويكفي ان يقع حادث فردي هنا وهناك لكي يدفع ثمنه عشرات ومئات من الابرياء ، ابتداء من الاعدام وانتهاء بنسف البيوت ، ومرورا باعتقال العشرات ، والحقيقة ان العرب

لا سند خارجي لهم، فكانت انجلترا تفعل لهم ما تشاء، أما اليهود فلهم نفوذهم وسلطانهم بين الطبقات الانجليزية الحاكمة ، بل ولهم نفوذهم الاكبر في امريكا التي خرجت من الحرب العالمية الثانية سيدة انجلترا نفسها ، والتي تبقيها على ظهر الحياة ، بما امدتها به من عون عسكري خلال الحرب ، وعون مالي بعد الحرب ، وقد وصل من (فجور) اليهود وطغيانهم ان راحوا يجمعون المال في امريكا لمساعدة يهود فلسطين في حركاتهم ضد الانجليز وذلك عن طريق نشر اعلانات في الصحف الامريكية تقول « ادفع دولارا لتساعد على قتل انجليزي في فلسطين » ومع ذلك فقد احتملت انجلترا كل هذا في صبر وتسامح وسترى كيف احتجت على نشر اعلان لي في صحيفة النيويورك تايمس ، صيغ بعبارات مهذبة ، لمجرد دعوتي لهم بالجلاء عن مصر ، واعتبر السماح بنشر هذا الاعلان عملا غير ودي تجاه بريطانيا ، مما سأتحدث عنه بالتفصيل في حينه • وأعود الى ما كنا بسبيله وهو الجو الذي كان يظل فلسطين عندما دخلنا اليها ، حيث كان اليهود يشنون حملة جبارة يؤججها الانجليز بتراخيهم وتسامحهم ، وذلك في الوقت الذي كان فيه العرب يقفون موقف المتفرج على هذا الصراع الذي كان يجري على حسابهم ، واذا كان الانسان المنصف يستطيع ان يغتفر لابناء هذا الجيل من الفلسطينيين سلبيتهم في هذا المنعطف التاريخي بدعوى ان الانجليز كانت قد طحنتهم طحنا ، وتكبدوا ما تكبدوا خلال الاعوام من ١٩٣٦ الى ١٩٣٩ ، أقول اذا كان من الممكن التسامح معهم في هذه السلبية فان ما لا يمكن التسامح فيه أو غفرانه لهم فهو الفرقة الشديدة التي اندلعت بين احزابهم وزعمائهم والتي لم تقف عند حد التراشق بالاقوال ، بل تعدته الى اثارة احقاد قديمة بين العائلات والاخذ بالثأر بقتل هذا أو ذاك من الزعماء ، ولكني قبل أن اتعرض للحديث عن هذا الموضوع وعما بذل من جهود لجمع الصفوف ، أريد أن أشير لبعض مشاهداتي في القدس ونابلس ويافا وتل ابيب ، لتكون مرجعا للباحثين في أحوال فلسطين هذه الايام ، باعتبارها

مشاهدات سائح ، وأول هذه الخواطر ، وجود الحراس المسلمين في كل المقدسات المسيحية بناء على طلب المسيحيين انفسهم •

سماحة الاسلام :

ليس من برنامجي بعد مرضي أن استطرد في كتاباتي ، أولاً لعدم قدرتي على ذلك فقد أصبحت أجد صعوبة في الكتابة ولذلك اقتصر على ما هو ضروري للموضوع الذي أعالجه ، ومع ذلك فاني اخرج عن هذه القاعدة وأسطر بعض ما يعلق بذهني من التاريخ القديم الخاص بالقدس والاسلام وقد بات ذلك ضروريا بعد ان فقد العرب والمسلمون القدس وباتت في يد اليهود •

عمر بن الخطاب وكنيسة القيامة :

ولقد اشرت فيما مضى لعهد سيدنا عمر بن الخطاب الذي استسلمت على اثره مدينة القدس للمسلمين ، وقد حدث اثناء زيارة عمر بن الخطاب لكنيسة القيامة ، ان حضر وقت الصلاة فعبر عن رغبته في مغادرة الكنيسة ليصلي ، فقال له بطريرك القدس الذي كان يرافقه : ولماذا لا تصلي هنا يا أمير المؤمنين ، الا تجوز الصلاة ؟ فقال عمر رضي الله عنه ، بلى تجوز ، ولكني أخشى ان انا صليت هنا ، ان يقول المسلمون من بعدي هنا صلى عمر فيقلبون كنيستكم الى مسجد ، وأنا أريد ان ابقيها عليكم وخرج الى ساحة خارج الكنيسة فصلى بها ، وصلى المسلمون وراءه وهكذا قام مسجد عمر في مدينة القدس في مواجهة كنيسة القيامة وعاش بيتا العبادة متجاورين في أمن وسلام واحترام متبادل طوال اكثر من ثلاثة عشر قرنا ، وطالما أثر هذا الوضع في نفسي كلما زرت القدس وقد زرتها اكثر من مرة •

صلاح الدين الايوبي والقدس :

أما الحادث الثاني الذي يطالعني كلما زرت القدس، فهو ما فعله صلاح الدين عندما استرد القدس من الصليبيين ، فقد كان الصليبيون قد ارتكبوا

من الفظائع عندما سقطت القدس في ايديهم ما تقشعر الابدان لمجرد ذكره ، وقد فصلت القول في ذلك في كتابي « تاريخ الانسانية » ، وفي كتاب «الامة الانسانية» ، حيث أقسم الصليبيون ان تخوض خيولهم في دم الكفار ويعنون بهم المسلمين ، وقد بروا بقسمهم فعندما أعاد صلاح الدين فتح القدس دهش الصليبيون ومعهم كل اوروبا لروح التسامح والانسانية المفرطة التي عاملهم بها صلاح الدين ، بحيث ان المؤرخين المسلمين المعاصرين انتقدوا صلاح الدين في موقفه ، ناسين ان صلاح الدين ، كان يعبر بذلك عن روح الاسلام ، ويتأسى بموقف رسول الله عندما دخل مكة فاتحا ، فقال لاهلها الذين كانوا يرتجفون رعبا مما قد يحل بهم لكثرة ما عذبوا سيدنا محمدا وبقية المؤمنين واخرجوهم من مكة وحاربوهم ، فاذا سيدنا محمد يفاجئهم بقوله : اذهبوا فانتم الطلقاء ، بل وفعل ما هو أكثر من ذلك، اذ أبى ان ينتزع مفاتيح الكعبة ممن كانت بيدهم عندما طلبها علي بن أبي طالب . هذه هي الروح التي استلهمها صلاح الدين وهو يتصرف بالطريقة التي تصرف بها ، وقد أدى ذلك الى كسر حدة الحروب الصليبية ، فلم تقم لها بعد ذلك قائمة .

الحراس المسلمون :

هذان هما الموقفان اللذان كنت أتمثلهما كلما زرت مدينة القدس اذ كان يذكرني بهما دائما رؤية الحراس المسلمين في كل البقاع المسيحية المقدسة بناء على طلب المسيحيين أنفسهم ، ففي القديم لم يكن الامر كذلك فكانت المعارك الدموية والمذابح تكاد تقع يوميا بين طوائف المسيحيين المختلفة الذين جاءوا للتعبد في هذه الامكنة فقد كان يكفي مثلا ان تسقط على الارض نقطة من شمع مذاب من عشرات الشموع الموقدة ، فيجثو احد المتعبدين ليمسح هذه النقطة الشمعية على سبيل البركة ، فينقض عليه بقية المتعبدين من الطوائف الاخرى ليحولوا بينه وبين فعلته خوفا من ان يصبح هذا حقا مكتسبا للطائفة التي ينتمي اليها هذا المتطوع لمسح

الارض ، وهكذا كانت تشتعل الفتن ، فرؤي ان يوضع حرس من المسلمين ليحولوا دون وقوع مثل هذا الحادث •

هكذا رأيت القدس وطفت في ارجائها وهي لا تزال بعد عربية بـل واسلامية باختيار المسيحيين أنفسهم •

زيارة مدينة نابلس :

وبعد القدس زرنا مدينة نابلس ، حيث كان في انتظارنا مصطفى بك بشناق أحد زعماء المدينة مع بعض كبار أعيانها فهي مسقط رأس الاستاذ الكبير محمد علي الطاهر ومستقر اسرته ، وهناك حدثونا عن مثلث الرعب بالنسبة لليهود والانجليز وهو نابلس ، جنين ، وطول كرم ، وهي مـدن فلسطين العربية الكبرى ومعاقل ثورتها التي فشل فيها الانجليز لمناعتها فهي رابضة بين الجبال الشماء التي لا يمكن اقتحامها ، وحدثونا عن نهضـة المدينة الصناعية الكبرى وما زلت اذكر اننا زرنا مصنعا حديثا للكبريت فرحت به جدا كما زرنا مصانع الصابون النابلسي الشهيرة في مصر والتي ما زالت تعمل باسلوبها القديم الناجح في انتاج الصابون النابلسي •

يافا وتل ابيب :

ومن نابلس انحدرنا الى يافا وكان مرافقنا في كل هذه الجولات الاستاذ مصطفى الطاهر الصحافي المجاهد الثائر ، وقادنا لتل ابيب لنأخذ فكرة وكان ان رأيت مدينة ذات طابع أوروبي ولم نمكث بها الا بضع دقائق ريثما مرت السيارة خلال الشارع الرئيسي ، ولقد كان الامر بالنسبة لنا مزيجا من الخوف والشعور بالاثم ، ولذلك فقد سارعنا بمغادرة المدينة ، ولكنا صادفنا على الطريق أحد المصانع اليهودية للنسيج فحصل لنا صاحبنا على اذن بزيارة المصنع ، وهو مصنع صغير حديث للنسيج ، ولم يترك في نفسي أي أثر ، فقد كان شيئا لا يقارن بالنسبة لضخامة مصانع شركة مصر للغزل والنسيج في المحلة ، ولكن الفارق العظيم سرعان ما تجلى عندما قادنا صاحبنا الى مصنع نسيج يدوي بدائي انشىء حديثا في يافا كمظهر للنشاط

العربي، فأحسست بالخجل ، وتظاهرت بالسرور وقلبي ممتليء بالغم، ولولا انني كنت قد شاهدت مصنع الكبريت الحديث في نابلس وبعض مظـاهر النشاط الاخرى ، لكان حزني مضاعفا •

خلافات الاحــزاب :

ولكن الامر الذي جعلنا نفارق فلسطين ونحن في خوف من المستقبل ، هو هذه الفرقة الحادة التي كانت بين الاحزاب الفلسطينية • لقد كان مفتي فلسطين بعيدا عن فلسطين ، وكان يمثله جمال الحسيني • فرأس الحزب الشعبي ، ولكن كان هناك راغب النشاشيبي يرأس حزبا آخر وكان كل من الحزبين يتصور منافسه أشد خطرا من اليهود والانجليز معا • وكـان هناك عديد من الاحزاب الصغيرة الاخرى ، اذكر منها حزب الشباب الذي كان يرأسه يعقوب الغصين ، وكانت المشكلة في ذلك الوقت هي اعـادة تشكيل الهيئة العربية العليا ، لتقود من جديد نضال عرب فلسطين في هذا المنعطف التاريخي ، وقد كان السيد جميل مردم سفير سوريا في مصر قد جاء الى فلسطين على رأس وفد لمحاولة التوفيق ، فانضممنا اليه لتحقيق المسعى • وفي احدى الحفلات التي اقيمت لنا في يافا اذكر انني القيت خطابا صريحا خاليا من كل مجاملة ، نددت فيه بهذه الفرقة ، وقلت ان الامر لا يحتاج لان يكون الانسان نبيا لكي يحذر من عواقب هذا الخلاف في المستقبل، ولكن الذي لم يكن يتصوره الانسان بحال، ان العرب سيطردون من فلسطين والذين سيبقون فيها سيكونون تحت حكم اليهود وان القدس ستقع في قبضة اليهود بل وما هو اكثر من ذلك كله ، وهو ان يحتل اليهود قناة السويس ويدكوا مدينتي الاسماعيلية والسويس على رؤوس أهلها ، مما سيجيء في خاتمة المطاف ، أما في ذلك الوقت ، فقد كان أكثر ما تتصوره من السوء بالنسبة لمستقبل فلسطين، هو ان تتزايد اعداد اليهود في فلسطين، ويزداد ما يتملكونه من الاراضي •

وانا اكتب الان ما اكتب في النصف الثاني من عام ١٩٧١ ومشكلة

الشعب الفلسطينية الكبرى ، هي هذه الخلافات والحزازات التي نشبت بين المنظمات الفلسطينية ، وهو نفس الداء القديم ، الذي لا أقول أنه سبب نكبة فلسطين ، ولكنه سهل العملية وجعلها اكثر يسرا ، والحق ان الفرقة الحادة بين العائلة الواحدة ليست آفة الشعب الفلسطيني فحسب بل هو احد خصائص العرب الاصيلة فيهم والتي انقذهم منها الاسلام لفترة من الزمن فاستطاعوا ان يفتحوا دنيا ذلك الزمان ، على ان طبعهم الاصيل في الفرقة سرعان ما دب اليهم فكانت هذه المآسي في تاريخهم ، ولعل ابرزها ما حل بهم في اسبانيا (الاندلس) ثم وقوعهم بالجملة في براثن الاستعمار الاوروبي •

السفر الى عمان :

انتهت مساعي التوفيق بالنجاح فتشكلت الهيئة العربية الكبرى على أساس خمسة أعضاء لكل من الحزبين الكبيرين (حزبي الحسيني والنشاشيبي) وعضوين لكل حزب من الاحزاب الاخرى • وعلى هذه النهاية السعيدة (مؤقتا) غادرنا فلسطين ، الى الاردن ، ونزلنا في الفندق الكبير الوحيد آنذاك وهو فندق فيلادلفيا ، المطل على الآثار الرومانية القديمة ، وسرعان ما تلقينا دعوة من قصر الامير عبدالله بن الحسين الذي كان لا يزال أميرا على شرق الاردن (اصبح فيما بعد الملك عبدالله) وذلك لتناول طعام الغداء على مأدبة الامير ، فرحبت بالدعوة التي تتيح لنا دراسة الرجل عن كثب ، وقد كان المتعارف عليه انه رجل بريطانيا في المنطقة وقد كان ذلك شيئا لاخفاء فيه وكان الرجل لا ينكره بل ويعتز به فالانجليز هم الذين وضعوه على رأس هذه الدويلة وهم الذين ينفقون عليه ، وهم الذين ينظمون جيشه كفرقة من فرق الجيش الانجليزي ويجهزونه بالاسلحة والمعدات ليكون يدهم الضاربة ، وكان على رأسه من يسمى جلوب باشا وكان هو صاحب السلطان الاكبر في شئون الاردن ولم يكن الامير عبدالله يتصرف في شيء حتى في مطابخ قصره الذي كان الانجليز ينفقون عليه ،

وبالتالي يحددون عدد الاصناف والكميات ، وتركوا للامير اختيار الالوان التي يفضلها ، أقول ان كون الامير عبدالله كان انجليزيا ، فهو أمر طبيعي ومفهوم ، ولكن الحوادث فيما بعد قد كشفت عن تآمره مع اليهود وتعاونه معهم لتحقيق خططهم .

مأدبة الفـداء :

كانت مائدة الطعام والاصناف التي قدمت عليها، والطريقة التي قدمت بها في غاية البساطة ، بحيث لا تزيد عن أي مأدبة يقيمها رجل من أوساط الناس لضيوفه ، ولكن ذلك كان موضع ترحيبي ، فانا أميل الى البساطة ، ولكني علمت فيما بعد كما قدمت ان ذلك كان مفروضا عليه .

حرية الرجل في الكـلام :

وقد راعني ان الرجل لم يكن يتحفظ في حديثه ، أو يختار الفاظه ، بـل كان يتحدث كما يشاء له الحديث ، كأن يسب الملك عبد العزيز آل سعود ، أو يعالج بعض الموضوعات بأسلوب ناب ، ومن ناحيتي فقـد انطلقت في احاديثي بغـير تحفظ كذلـك ، فهاجمت الانجليز ، وشرحت نظريتي في وجوب الوحدة العربية ، ولكن حديثي كان في حدود الادب والمجاملة ، فلم يكن قد تكشف بعد الدور الذي سيلعبه في نكبة فلسطين ، حيث سيكون أحد العوامل في مضاعفاتها .

واني اذكر الان انني اثنيت على مدينة عمان وانها رغم صغرها ، فهي نظيفة وانيقة ، فنظر الي في استرابة ، وقال لي : لست اعرف اذا كنت تقول هذا على سبيل السخرية، ولكني معتز بعمان وفخور بها فقد انشأتها انشاء. وما زال في ذاكرتي ، كيف دخل عليه ابنه طلال والد الملك حسين وقـد عاد من تدريب عسكري ، فارتسمت على وجه الامير عبد الله نظرة حنان ولما حاول طلال ان يقبل يد ابيه أسرع أبوه فعانقه .

من عمـان الى دمشق :

ولم يكن باستطاعتنا في عمان ان نفعل اكثر مما فعلنا ، فلم يكن شرق

الاردن ــ وقتذاك اكثر من مجموعة منعشائر البدو الذين تربطهم بالامير عبدالله رابطة الولاء المشترك للانجليز الذين كانوا يمدونهم بمقومـات الحياة ولم تكن عمان تزيد عن قرية جميلة نظيفة أبرز ما فيها هو الامير عبدالله ، بل لعله كان كل شيء فيها وغادرنا عمان الى دمشق مستعملين احدى السيارات •

قلب العروبـة :

وقد كانت سوريا في هذه الفترة من تاريخ العرب الحديث هي قلب العروبة الخفاق اذ كانت العراق قد نكست بعد فشل ثورة الكيلاني وأصبح النشاط كـل النشاط من أجل العروبة وتحرير مـا بقي منها وتوحيدها هـو شغل سوريا الشاغل حكومة وشعبا وجيشا ، شيبا وشبانا ونساء ورجالا ، فلا عجب ان استقبلنا فيها بحفاوة منقطعة النظير وفتحت الصحف لنا صفحاتها ورحبت بدعوتنا وأشادت بها ، والقيت عدة محاضرات وخطب سياسية•ومن دمشق الى حلب حيث كانت الحفاوة أشد والاستجابة للدعوة مشجعة جدا ، بحيث لا استطيع بعدما يقرب الآن من ربع قرن ، الا أن أذكر حرارة الشباب وحماسته كما لو كانت بالامس فقط •

أمين الحسيني :

وفي دمشق في هذه الجولة قابلت الحاج أمين الحسيني زعيم فلسطين، ورأيت كيف يتصرف بحرية واقتدار في سوريا ، فقد كان محاطا بحرسه الخاص المدجج بمختلف انـواع الاسلحة • وقـد لمست طابـع السرية والتكتم الذي يعمل به ، و تمت مقابلتنا وتحدثنا في كل شيء وعن كل شيء ، الا انه سيسافر عقب خروجي من عنده الى السعودية فيما اذكر ، وربما كنت أعطله بوجودي معه ، ولكن الرجل لم تبدر عليه أي بادرة تنبيء عما هو مقدم عليه •

الرباط بيني وبين الحاج أمين :

ولقد أشرت فيما سبق عن اتصالنا بزعيم فلسطين عن طريق المراسلات،

ولكن في هذه الفترة التي أتحدث عنها كانت قد نشأت بيننا صلة قوية مشتركة ، من خلال استشهاد مصطفى الوكيل ، والصلة القوية التي ربطته خلال الحرب بأمين الحسيني فقد انشأا معا ، المعهد الاسلامي العالي في برلين ، وكان سماحة المفتي هو رئيس المعهد ومصطفى الوكيل امينه ، ولقد حدث ان التجأ امين الحسيني الى مصر عقب انتهاء الحرب ، فقبل الملك فاروق ضيافته في مصر وعبثا حاول الانجليز ان يحتجوا بأن أمين الحسيني عدو الانجليز ، وانه صادر بحقه اكثر من حكم اعدام . لقد رفض الملك فاروق ، وحكومات مصر المتعاقبة ان تسمع لكلام الانجليز الذين كان لهم أكثر من مائة الف جندي في مصر ، وهكذا عاش أمين الحسيني في مصر معززا مكرما • وفي مصر تقابلنا ، وروى لي سيرة مصطفى الوكيل ووصفه بالقداسة • وهكذا وحدت صداقة مصطفى الوكيل لكلينا مشاعرنا من الناحية الخاصة علاوة على الناحية العامة •

منعنا من الدخول الى العراق :

وفي دمشق تلقينا رسالة تلفونية من قنصلية العراق ، وكان آخر ما أتوقعه ان يعلمني بأن وزارة الداخلية العراقية قد ألغت تأشيرة دخولي الى العراق وانه لن يسمح لي بالدخول • وقد فكرت بادىء الامر بأن لا أعترف بهذا الحظر كما قدمت وان أواصل سفري ، وليكن ما يكون ، ولكني اكتفيت بنشر هذه الفضيحة في مجلة مصر الفتاة ، واحتكمت للشعوب العربية بعامة ، والشعب العراقي بخاصة ، عارضا عليه هذا الذي حدث من تصريح رئيس الحكومة بالدخول ، ثم معارضة وزارة الداخلية ، ولعل الله صرفني عن الدخول الى العراق يومئذ حتى لا تحاك لي مؤامرة •

من سوريا الى لبنان :

ومن دمشق عاصمة الامويين كما يحلو للسوريين ان يقولوا دائما في فخر واعتزاز ، وبعد ان حيل بيننا وبين زيارة العراق ، اتجهنا صوب بيروت عاصمة لبنان ، وقد حذرني السوريون وكل مشتغل بالوحدة العربية من

لبنان ، وكيف انهم لا يطيقون سماع كلمة العروبة ، ولكني كنت واثقا من قوة المنطق الذي تقوم عليه دعوتي للولايات العربية المتحدة ، وانها لا تقوم على مجرد العواطف والتغني بمجد العرب ، وانما تقوم على المحافظة على الذات والمصالح القومية ، وكانت تجربتي مع الفرعونية خير معين لي على مجابهة اللبنانيين ، فبين الفرعونية والفينيقية وشائج القربى وأقوى الصلات، والعجيب ان لبنان الذي يتهم بعدم تحمسه للوحدة العربية ، كان هو باعث هذه الفكرة ، ومن ابنائه خرج رواد هذه الدعوة ، من امثال اليازجي والبستاني ، وتجدد شباب اللغة العربية مدين من غير شك للبنانيين ، ونهضة مصر الادبية الحديثة ترجع الى اللبنانيين ، فهم الذين ادخلوا المسرح والصحافة الحديثة الى مصر ، وقد كان هذا هو ما ذكرته في بياناتي ونداءاتي التي اذعتها ونشرتها الصحف فكانت خير دعاية للاجتماع الذي دعت اليه النجادة لأخطب فيه ، وقد كانت الخصومة في ذلك الوقت (١٩٤٥) شديدة جدا بين النجادة والكتائب ، ولكن ذلك لم يمنع رئيس الكتائب (الشيخ بطرس الجميل ــ بيار فيما بعد) من شهود الاجتماع • وقد تحدثت أول ما تحدثت عن فينيقيا ووجوب اعتزازنا بهذا التاريخ القديم ومن العبث ان يتصور متصور ان العرب عندما انساحوا في الدنيا ، وورثوا الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية قد حلوا في فراغ ، فقد كانت البلاد التي فتحوها تغص بسكانها ، اعتنق منهم الاسلام من اعتنق ، وظل محافظا على دينه من أراد الاحتفاظ به ، فنحن عندما نتكلم،عن وجوب قيام نوع من الترابط والتعاون بين المتحدثين باللغة العربية ، فنحن لا نتحدث عن جنس واحد والا كانت هذه مغالطة يدحضها التاريخ ، فقد كان في مصر شعب حين دخل العرب وكذلك الحال في سوريا وفي فلسطين والعراق ، حقا قد تكون هذه الشعوب القديمة ، قد انحدرت كلها من العنصر السامي الذي يؤلف العرب نواته وجوهره،والمهم ان هذه الشعوب قد تكونت وأصبح لكل منها خصائصه التي تفرضها عليه بيئته وظروفه • على ان المجتمعات في العصر الحديث اصبحت

تقوم على اللغة المشتركة والتقاليد المشتركة واولا واخيرا على المصالح المشتركة ، وهل هناك مصلحة للبناني أعظم من ان يكون هو احدى رئات العالم العربي التي يتنفس بها ، وينفتح على العالم ، اليست هذه رسالة لبنان منذ أقدم العصور ، ألم يكن هو الذي نقل حضارة المنطقة كلها الى العالم ، وهذا دور لبنان اليوم وغدا وفي كل حين والحق ان لبنان لم يقصر في اداء هذا الواجب ، أليس ابناؤه المغتربين في اربعة ارجاء المعمورة ، هم الذين يرفعون لواء العروبة بطريقة عملية فعلية اذ يصدرون صحفا باللغة العربية ويتغنون بالشعر العربي ، ويترنمون بالموسيقى والاغاني العربية ، ولم يستطع الحاضرون الا أن ينفعلوا بما سمعوا ونشرت الصحف كل شيء عن الاجتماع ، وهو مسجل كما قلت في جريدة مصر الفتاة .

في مدينة صيدا :

وكان اعظم برهان على نجاح هذا الاجتماع اننا دعينا الى صيدا ، وكان الاجتماع الضخم آية استجابة الشباب الى حديث الوحدة ، واني أعيش الآن في لبنان عام ١٩٧١ أنعم بصداقة ومعاونة أخ كريم ، كان هو واحدا من شباب صيدا الذين استقبلونا في ذلك التاريخ واكرموا وفادتنا ، حتى لقد دعانا الى بيته ، واليوم قد أصبح من اكبر ناشري العالم العربي ، يعمل من خلال طبع الكتاب ونشره ، على توثيق الروابط العربية وصهر المزاج العربي في بوتقة واحدة ، واعني بذلك الاخ الكريم الاستاذ شريف الانصاري الناشر اللبناني الكبير ، وقد ذكرت هذه الواقعة لانها تغني بنفسها عن كل تعليق ، وتثبت باجلى وضوح عمق الدعوة للعروبة بمعناها الحديث وأصالتها .

الفصل التاسع

ما بعد الرحلة ـ الشيوعيون وفكرة العروبة الصهاينة يقودون الحركة الشيوعية في مصر . وصف مصر الفتاة بأنها فاشستية ـ رحلة الى الولايات المتحدة الامريكية ـ انجلترا تعلن اعتزامها الانسحاب من فلسطين ـ عرض المشكلة على هيئة الامم ـ موقف العرب ـ قرار التقسيم ـ عودتي الى مصر ـ قضية فلسطين تفرض نفسها .



ما بعد الرحلــة :

كانت الرحلة السابقة رحلة استطلاعية خرجت منها بالانطباع ان الاحوال مهيأة لجمع شمل العرب ، ومن عجب ان مصر التي أصبحت مركزا للجامعة العربية ، وأكبر المحاور للدعوة للوحدة العربية ، كانت في مركزها السياسي أضعف من سوريا ولبنان اللتين لم يكن فيهما جيش احتلال ، وشتان بينهما وبين السعودية الحرة المستقلة • وغني عن البيان ان مصر رغم ظروفها فهي واسطة العقد في البلاد العربية ، ولذلك كان من الطبيعي ان نركز كل جهدنا في تخليص مصر من الاحتلال الانجليزي وان تحقق وحدة وادي النيل الطبيعية لكي تنطلق لتؤدي دورها في تجميع العرب وتوحيدهم •

وقد كانت هيئة الامم قد تأسست حديثا ، وعلقت الشعوب عليها اكبر الآمال ، وارتفعت صيحتنا في مصر بضرورة عرض قضية مصر ووجوب جلاء الانجليز عن مصر وتوحيد وادي النيل على هيئة الامم •وكوسيلة من وسائل تحريك الرأي العام المصري في هذا الاتجاه ، والضغط على الحكومة المصرية لتخطو هذه الخطوة ، قررت جماعتنا ايفادي للولايات المتحدة الامريكية للدعاية للقضية المصرية ، وبالفعل سافرت لأمريكا لهذا الغرض ، على أنه سرعان ما فرضت قضية فلسطين نفسها علي من جديد وعلى العالم كله ، ولكني قبل أن أتحدث عما جرى في أمريكا ، أريد أن أقول كلمة للذكرى والتاريخ عن موقف روسيا والشيوعيين المصريين بخاصة في هذه الفتــرة بالنسبة للصهيونية وقضية فلسطين •

هنري كوربيل الصهيوني ومؤسس الشيوعية في مصر :

مصر بلد متدين من الرأس حتى النخاع فلا يمكن ان تكون مرتعــا

للشيوعية ، وكان الشباب المصري في هذه الفترة التي اتحدث عنها أي في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، اما يساير الاحزاب القديمة التقليدية وعلى رأسها الوفد بطبيعة الحال ، واما انه ينتمي الى الحركات الجديدة الشابة وعلى رأسها الاخوان المسلمون ومصر الفتاة ، ولم يكن الامر يخلو بطبيعة الحال من بعض أفراد من الشباب المثقف يديم مطالعة الافكار والنظريات الماركسية(١) خاصة وقد كان لانتصار روسيا الساحق على المانيا الهتلرية أعظم دعاية للشيوعية باعتبارها اساس النصر ، مع ان مجريات الحوادث تثبت ان روسيا الشيوعية أفلست سياسيا وعسكريا في الادوار الاولى من الحرب ، وليس الا بعد ان تطورت أساليب ستالين ، واستهابته بالوطنية الروسية التي دحرت نابليون من قبل والا بعد ان سمح باعادة فتح الكنائس ان تحقق الانتصار ، والمهم ان مصر لم تعرف أي تنظيم شيوعي ، حتى رأى الصهاينة ان يكونوا هم الذين ينظمون الشيوعية في مصر لخدمة اغراضهم ، ومن هنا فقد برز فجأة على مسرح المجتمع المصري يهودي صهيوني يدعى هنري كوربيل صهيونيا وأن يكون هو الموجه لهـذه الخلايا الشيوعية الشباب الغافل في وحدات صغيرة (خلايا) تحت اسماء مختلفة ، فثمة جمعيات أدبية واخرى اجتماعية ، وحقيقة امرها انها تشتغل في الخفـاء بالنشاط الشيوعي بتوجيه من هنري كوربيل ، امـا لماذا رجحنا ان يكون هنري كوربيل صهيونيا وأن يكون هو الموجه لهذه الخلايا الشيوعيـة الاولى في مصر ، فهو لان نشاط الشيوعيين الاوائل في مصر كان يعادي الوحدة العربية، ويؤيد يهود فلسطين ، ويعتبر الحديث عن الوحدة العربية، وعن اقامة فلسطين العربية، دعوة رجعية متخلفة، وكان الشيوعيون الاوائل يمجدون الانجازات اليهودية في فلسطين ، ويشيدون بنظام المستعمـرات اليهودية في فلسطين كنموذج رائع للشيوعية التي يجب ان تسود الـشرق الاوسط كله ، وقد كانت هذه هي وجهة نظر روسيا آنذاك ، وسنرى بعد

(١) اريد أن اسجل اسم الاستاذ فتحي الرملي كنموذج لهذا الطراز من الشباب الوطني الصادق .

قليل كيف كانت روسيا من اكبر العوامل التي ساعدت على قيام دولة اسرائيل ، وكانت هي أول دولة اعترفت باسرائيل • ولما كانت مصر الفتاة في هذه الفترة تحارب الصهيونية بكل عنف ، وتدعو للوحدة العربيـة ، فقد كرس هنري كوربيل القسم الاكبر من نشاطه لتشويه سمعة مصر الفتاة ، فراح يدس للشيوعيين ان مصر الفتاة حركة فاشية ، على طراز حركة هتلـر وموسوليني ، مستندين في ذلك الى محاولة مصر الفتاة بث الروح العسكرية في الشباب ، وابتلع الشيوعيون الاغرار هذه الفرية وراحوا يرددونها كالببغاوات ، ناسين ان الفاشستية كما يمثلها هتلر وموسوليني هي ذروة التسلط الاستعماري ، اما دعوتنا شباب مصر للتذرع بالقوة فلكي يكون قادرا على تحرير بلاده من ربقة الاستعمار ، ومن الغريب انه بعد ان اعترف الاتحاد السوفياتي نفسه بهذه الحقيقة ، فاعترف بـأن كل جهاد في سبيل التحرير هو حركة تقدمية ، فلا يزال مدعو الشيوعية في مصر بعد أن تقدمت بهم السن ، وأصبحوا علما على الانتهازية ، اذا تحدثوا عن مصر الفتاة وصفوها بالفاشستية ، وليس ذلك الا بقية من تعاليم هنري كوربيل الصهيوني • ولمـا كانت مصر الفتاة تقف في حلق الصهيونية ، كان لا بد من محاولة هدمها بتشويه سمعتها بادعاء انها حركة فاشستية رجعية ، وقد عشت حتى رأيت مدعي الشيوعية في مصر من اكبر انصار الوحدة العربية ، لمجرد ان روسيا غيرت سياستها نحو هذا الاتجاه ، وأصبحوا اعداء للصهيونية ، ولكن اذا تحدثوا عن التاريخ فمصر الفتاة فاشستية لانها كانت أول من حارب الصهيونية في مصر ، ولان رائـد الشيوعيين في مصر بعد الحرب كان يهوديا صهيونيا (هنري كوربيل) •

مع هنري كوربيل في السجن :

وقد اتيح لي أن أشهد هذا الهنري كوربيل عن كثب ، فقد حبست في بعض المرات مع مجموعة الشباب الشيوعي في مصر وكان من بينهم او بالاحرى على رأسهم هنري كوربيل ، وعلى الرغم من أن الطعام في سجن

الاجانب ، كان يعتبر بمقاييس ذلك الزمان شيئا فخما جدا اذ كــان يتألف من اللحم والارز والخضار والفاكهة ، أي انه كان طعاما لا يتوفر لاكثر من ٩٥ بالمئة من الشعب المصري فقد كان هنري كوربيل يأتيه الغذاء الفاخر من خارج السجن ، وكان طعاما بحيث يكفي للتوزيع على سائر السجنــاء المحظوظين من الشيوعيين ، ولم يسائل أي شاب من الشيوعيين الاغــرار في ذلك الوقت من أين يجيء كوربيل بهذه الاموال التي ينفقها لتدعيــم الحركة الشيوعية في مصر • أغلب الظن انهم فكروا ، واستقر رأيهم انه قد يكون من روسيا نفسها ، بل وأغلب الظن انهم لو عرفوا ان الشيوعية الاولى كانت تمول من الصهيونية ، لما وجدوا في ذلك أي لوم أو تثريب ، فقد كانت الصهيونية تمثل عندهم ذروة التقدم والتجديد ، والعروبة وحق عرب فلسطين في بلادهم ، كان ذلك هو رمز التخلف ولا اعتراض عندي ان يخدع بعض الشباب في يوم من الايام وفي مرحلة من مراحل حياتنا ، ولكن الذي لا اغتفره على الاطلاق وسوف أحاسبه عليه يوم القيامة ان يظل واحد ممن يدعون انهم شيوعيون في مصر ، يردد هذه الفرية والاكذوبة ، بعد ان تبدلت الدنيا ، وأصبح سيادته استاذا للتاريخ بالذات فيعلم النــاشئة سنة ١٩٧١ ما كان يقوله كوربيل الصهيوني عن مصر الفتاة لانها كانت تهاجم الصهيونية على انها فاشستية[١] •

كلمة انصاف :

وما دمنا قد تحدثنا عن الشيوعيين المصريين في الاربعينات وموقفهم مــن قضية فلسطين وكيف كانوا مطية للخطط الصهيونية مــن حيث لا يشعرون ، فان من الحق والانصاف أن أنوه للتاريخ موقف خالد بكداش زعيم الشيوعيين السوريين ، فقد كان موقفه من قضية فلسطين موقف عربي أصيل وهو معاداة الصهيونية وقد استطاع خالد بكداش في كل المؤتمرات

---

(١) الاستاذ المذكور هو الدكتور محمد أنيس أستاذ التاريخ في جامعة القاهرة، وعلى الرغم من لفت نظره فهو مصر على هذيانه •

الشيوعية التي حضرها ان يتمسك بهذا الموقف وان يؤكد انه الموقف السليم وما ذلك الا انه رجل مبدأ اصيل ولم يبدأ شيوعيته بتلقيها عن يدي يهودي صهيوني •

الرحلة الى امريكــا :

سافرت الى الولايات المتحدة الامريكية كما قدمت وكان ذلك في أخريات عام ١٩٤٦ ومطلع عام ١٩٤٧ ، ومنذ وصلت الى نيويورك جوبهت بالعداء اليهودي منذ اللحظة الاولى ، وظل هذا العداء يتراكم حتى بلغ حد الاصطدام كما سنرى ، ولم تلبث قضية فلسطين لا مصر هي محور الجزء الاخير من رحلتي •

لجنة العرب الامريكان :

ذهبت اول ما وصلت الى مدينة نيويورك الى مقر اللجنة العربيـــة الفلسطينية ، التي أسسها في نيويورك الامريكان من اصل عربي فقد شاءت الصدفة ان يكون « حبيب كاتبه » مراسل جريدة الاهرام الذي كنت مزودا بخطاب توصية له من انطون الجميل رئيس تحرير «الاهرام» ، يتولى في ذات الوقت سكرتارية هذه اللجنة ، وفي أول زيارة لي لهــذا المكتب ، صادفت هناك محاميا امريكيا يسمى ريتشاردسون وقد جــاء يعرض خدماته متطوعا ليرفع قضية ضد بعض المؤسسات الصهيونية لقذفها في حق زعماء العرب وكبرائهم ، وكان المرحوم كاتبه يعلن عن أسفه لعـــدم استطاعتهم فعل ذلك فيدهم مغلولة • وحدث عن طريق المصادفة العابرة أن قدمني الاستاذ حبيب لهذا المحامي الامريكي المتحمس ضد اليهود فسألني عن اسمي فوجده مذكورا فيمن ذكر من اسماء زعماء العرب المطعون في حقهم باعتبارهم جواسيس للالمان ، وقد فرحت بطبيعة الحال أن أكون ممن شرفهم اليهود بخصومتهم ، وكان الكتاب المتضمن لهذا القــذف يسمى Arab war effort أي مجهود العرب في الحرب • وقد عرض علي الاستاذ المحامي ان اكون انا العربي القوي الشكيمة التي يتجاسر علــى أن يرفع دعوى ضد اليهود في نيويورك فشكرت له اخلاصه للعــرب ،

وحبه للعدل والانصاف ولكنني اعتذرت عن رفع القضية فقد كنت واصلا على التو الى نيويورك ، ومن العبث أن أبدأ نشاطي برفع القضايا ومهاجمة اليهود ، على ان هذه المناسبة وطدت أواصر الصداقة بيني وبين ريتشارد سون وسرعان ما اضطرتني الحوادث للاستفادة باقتراحه كما سنرى •

بدء العمل :

بدأت العمل في امريكا باعداد كتيب صغير أرد فيه على كتاب اليهود السابق منوها بالمساعدات التي قدمتها مصر للحلفاء والتي نوه بها تشرشل نفسه وامتدحها ، كما اعترفت بها امريكا نفسها ، وشرعت أتجول في أنحاء البلاد لأخطب وأحاضر ، وقد حدث ان دعيت لاجتماع عام لأخطب فيه عن القضية المصرية ، وتم كل شيء على ما يرام ، واذا بي أفاجأ وانا في حجرة نومي في الفندق بفتاة امريكية تقتحم غرفتي فامتلأت رعبا وفزعا فقد كنت قد حذرت قبل سفري الى الولايات المتحدة من لعبة قذرة يلعبها اليهود عندما يريدون تحطيم سمعة أي سياسي ، وهو ان يسلطوا عليه امرأة تزعم انه حاول الاعتداء عليها والى ان يثبت كذب التهمة تكون حملات النشر قد قصمت ظهره ، وعندما اقتحمت هذه الفتاة باب حجرتي بدون استئذان على هذه الصورة ، ايقنت ان الواقعة التي حذرت منها قد وقعت ، وهذا هو ما ملأني بالرعب والفزع ، ولكن سرعان ما تبينت أن الامر لم يكن كما توهمت ، وان حقيقة أمر الفتاة أنها محررة بجريدة (النيويورك بوست) وقد جاءت تطلب مني ردا على ما نشرته الجريدة خاصا بي ، وكان ما نشرته الجريدة حملة شعواء علي ، بمناسبة حضوري الاجتماع الذي أشرت اليه ، واتهموني بأنني أنا الذي نظمته ودعوت اليه ، وقد كان الاجتماع يتألف من أنصار النازي في امريكا ، وان الاجتماع كان موجها ضد اليهود (ضد السامية) وانني أثرت قضية فلسطين للاثارة والاستفزاز ، واعترضوا على الحكومة ان تسمح لامثالي بالدخول الى البلاد وقد رددت علي كل ما جاء في المقال ، وبينت انني أجهل هوية المجتمعين ، واني دعيت

لالقاء خطبة عن القضية المصرية ولبيت الدعوة ، ولم أقل شيئا عن فلسطين، فضلا عن ان أهاجم اليهود ، وبينت انني لا يمكن ان أكون ضد السامية ، لانني انا نفسي ككل العرب من الجنس السامي ، وختمت ردي بأن شكرت للجريدة ان هيأت لي فرصة الرد .

وانصرفت الفتاة بعد أن وعدتني بأن هذا الرد سينشر على الفور في الطبعات المتأخرة ، ولكن الطبعات ظلت تتوالى حتى بلغت سبعا دون ان ينشر الرد ، بل دون ان يرفع الخبر الكاذب جملة وتفصيلا ، وانتظرت الايام التالية دون جدوى بطبيعة الحال ، واجريت اتصالات مع الجريدة فكان الرد ان المحرر لم يجد في كلامي ما يستحق النشر كأنه يتوقع مني ان اعترف بما لم يحصل وانني عدو السامية لكي تستحق أقوالي النشر .
وهنا ادركت ان الامر قد ارتكب بسوء نية لسد كل الابواب في وجهي ، فليس هناك في نيويورك ما يحطم الحياة العامة لاي انسان اكثر من ان يتهم بانه يدعو ضد السامية ، وهي ، أي هذه التهمة تعرض مرتكبها لأقصى العقوبات في ولاية نيويورك ، وقد كان من اللطيف حتى قبل ظهور هذا المقال ان المشرفين على المكتب العربي الفلسطيني طلبوا مني أن لا احرجهم بالتردد على المكتب ، لان اليهود غير راضين عني ، واذكر انني ثرت في وجه رئيس مجلس ادارة المكتب ، وأبديت دهشتي ولماذا اذن أنشأوا لجنة للدفاع عن حقوق العرب في فلسطين اذا كانوا يخافون من وجود مجاهد عربي حتى لا يغضبوا اليهود ، فقالوا لي ان من لا يرضى عنه اليهود في نيويورك لا يستطيع أن يجد لقمة العيش ، ولكن اليهود يسمحون للامريكان من أصل عربي أن يتكلموا عن فلسطين في حدود معينة ، حدود القاء المحاضرات الاكاديمية المهذبة وقد رفضت بطبيعة الحال هذا المنطق وزدت من ترددي على المكتب ، بل سرعان ما أصبح مركز نشاطي ، والفضل في ذلك للاستاذ حبيب كاتبه الذي وقف بجواري فاذا كان هذا قد حدث قبل ظهور هذا المقال فعليك ان تتصور ماذا كان يمكن ان يحدث بعد ظهوره .

رفـع دعوى :

وهنا رأيت أن أضرب عدة عصافير بحجر واحد ، وهو أن أشكو محرر الجريدة الى القضاء بتحريك الدعوى العمومية ضده ، وهكذا أتحدى الصهيونيين في عقر دارهم ، وانتهز هذه الفرصة للقيام بأكبر قدر من الدعاية لقضية مصر ، وبطبيعة الحال كان المحامي موجودا ومتطوعا ، ولولا هذا لما أمكن التفكير في مسألة القضية ، فالمحامون يقبضون عشرات الالوف من الدولارات لرفع مثل هذه القضية ، هذا ان قبلوا رفعها منذ البداية ، اذ هي موجهة ضد صحيفة أو ضد الصحافة كلها التي تعتبر نفسها متضامنة في مثل هذا الموقف •

ومن العجيب أن مستر ريتشاردسون الذي كان متطوعا لرفع الدعوى أظهر في أول الامر شيئا من التردد عندما علم بعزمي على رفع دعوى جنائية، فقد كان مثل هذا التفكير لايطوف له في الخيال ، وانما المألوف والمعتـاد ان ترفع دعاوى مدنية ولكنني أصررت ان تكون الدعوى جنائية لرغبتي في السرعة من ناحية ، ولتكون اكثر امعانا في التحدي من ناحية اخرى ، فاعترض المحامي قائلا : ولكنه في كل تاريخ نيويورك القضائي لم يحدث أبدا ان رفعت دعوى جنائية على صحافي الا مرة واحدة منذ عشرات السنين ولم تتكرر • فقلت هذا لا يعنيني والمهم هو السؤال هل يوجد قانون يعاقب على القذف بسوء نية أم لا ؟ فقال ان القانون موجود ، فقلت اذن على بركة الله ، فقال ريتشاردسون ، وهو كذلك ، وانطلق ينفـذ المشروع ، وأشهد انه سرعان ما أصبح كأبطال الافلام الامريكية كما سترى •

مجريات الدعوى :

يقضي النظام الامريكي في مثل حالتنا بوجوب عرض الامر على أحد القضاة ليقال له اننا نرغب في مخاصمة شخص ما ليعطينا تصريحا بدعوته الى المحكمة واخباره بأننا نرغب في مخاصمته ، وبعد سماع اقوال الطرفين،

يصدر الاذن بالسير في اجراءات المخاصمة أو عدم السير[1] .

ولقد استطاع صاحبي المحامي ان يحصل بسهولة على تصريح من القاضي باستدعاء محرر الصحيفة الى المحكمة ، وتحولت المشكلة بعد ذلك الى من هو الذي توجد لديه الشجاعة لتسليم المحرر طلب الاستدعاء الى المحكمة وقد تبينت فيما بعد ان هذا المحرر ويدعى فيكتور ريزل هو احد عتاة الصحافيين ، وهنا بدأت تتجلى فدائية ريتشاردسون المحامي اذ تطوع لتسليم فيكتور ريزل طلب الاستدعاء بنفسه فذهب اليه بنفسه وطلب مقابلته ولم يتصور الرجل لماذا يريده ، فقابله هاشا باشا واذا به يفاجئه بتسليمه (السابينا) وهو الاسم الذي يطلقونه على ورقة الدعوة للحضور أمام القاضي وهي ورقة صغيرة بريئة ، غير انه مسجل في نهايتها تحذير ، انه في حالة التخلف عن الحضور فباستطاعة القاضي ان يصدر أمرا للبوليس لاحضاره بالقوة ، ولقد كان هذا هو آخر ما يتصوره صحافي عملاق ان يهدد بالقبض عليه ، فنظر شزرا الى ريتشاردسون واعتبره مسئولا عن هذا الاجراء ، وتوعده بأن سيكون له معه شأن آخر .

سماع الدعوى :

وحضرنا الى المحكمة وكانت تقع في كوني ايلاند وهو المكان الذي طالما رأيناه على شاشة السينما كمركز لمدينة الملاهي ، ولكن منطقة المحكمة كانت كأي مكان آخر في بروكلين . وجاء فيكتور ريزل الصهيوني محاطا بحشد من المحامين ومن (الفتوات) كما ظهر فيما بعد وكان القاضي قد تغير وجاء قاض آخر ، وعندما عرضت عليه الواقعة ليعطينا اذنا بالسير في الخصومة ، اكتشفوا ان الوقائع في حالة ثبوتها تكون جناية لا جنحة وهذا الوصف المغلظ للتهمة يترتب عليه بعض الاجراءات . أولها انه يتعين علي ان أطلب من القاضي أن يأمر بحبسه ، والاجراء الثاني هو ان يؤخذ للمتهم

---

(1) وذلك بخلاف النظام المصري المقتبس من النظام الفرنسي ، حيث يستطيع أي انسان أن يرفع دعوى مباشرة على أي انسان اخر .

(فيش وتشبيه) أي تؤخذ بصمات أصابعه فاذا ظهر ان للمتهم سابقة من نفس النوع سجن اجباريا بموجب القانون ولا يعود للقاضي خيار وكان مجرد قيام هذه الظروف موقفا جد مهين للمحرر الكبير ، وابتدأ هو ومن معه يضيقان بالموقف الذي أصبح سخيفا ، ان يقف محرر عملاق موقف الاتهام أمام (صعلوك عربي وافد من بلاده في رحلة عارضة) على انني من ناحيتي رفضت ان أطالب بسجن الرجل ، ذلك لانني عشت طول عمري أندد بفكرة حبس الصحافي على سبيل الاحتياط ، ولم اتصور أن الامر عندما يتصل بشخصي أخرج على هذا المبدأ ، وقد كنت متأكدا انهم لن يسجنوا الرجل ، ولكنهم ارادوا ان يحرجوني بهذا الطلب ، وقال لي القاضي في صرامة اذا لم تطلب مني أن أسجن الرجل فاني سأرفض الدعوى ، فقلت له افعل ما بدا لك ولكنني في بلدي اعارض في حبس الصحافي فمن المحال وانا في بلد أجنبي وهو بالذات بلد الحريات أطالب بحبس صحافي ، وتحرج الموقف وطلب محامي ان يحادثني على انفراد وأذنت له المحكمة ، وجاءني ريتشاردسون يرجوني ان لا أضيع هذه الفرصة الذهبية لمجرد اجراء شكلي ، فقلت له لن اتزحزح عن موقفي ، فقال لي هل عندك مانع أن تقول « أنني أطالب محاكمته طبقا لقانون ولاية نيويورك بكل ما يستتبع ذلك من اجراءات» ، فقلت له بالطبع لا أمانع ، وانا هنا لهذا الغرض فاسرع يقول للقاضي قبولي لهذه الصيغة الجديدة ، وارتضى القاضي هذا الحل وأصبح على الجميع مواجهة الاجراء الثاني وهو أخذ بصمات للمتهم ، وهنا كبرت المسألة في نفس فيكتور ريزل ومن معه ، واعتبروا ان هذا الاجراء لو تم يكون اهانة للصحافة الامريكية على يد عربي (قذر) في تصورهم بطبيعة الحال ، فما كانوا ليجسروا على النطق بهذه الكلمة بعد أن رأوا شدة مراسي ، فراحوا يحادثون القاضي بلهجة تفيض بالتوسل والرجاء ويلفتون نظره الى انني مجرد زائر عابر وانهم لن يستطيعوا ملاحقتي بالتعويضات ، فرد القاضي ، ان هذا بالذات هو ما يفكر فيه وما يريد أن يتلافاه وكان

المطلوب من القاضي ان يأذن لنا بكتابة عريضة الدعوى وبعد ذلك يجلس لسماع الدعوى ، فاذا رأى فيها مبررات جدية لامكان المحاكمة اصدر قراره باحالة الدعوى لتنظر امام محكمة الجنايات (جراند جوري) أي محكمة المحلفين ، ولكن المشكلة كانت في أن القاضي بمجرد ان يصدر لنا اذنا بكتابة عريضة الدعوى ، يصبح من المتعين أخذ بصمات فيكتور ريزل للتحقق من سوابقه وهذا ما كان القاضي يتحرج منه نظرا لشخصية الصحافي ونفوذه ، وضآلة شأني بالنسبة للقاضي بطبيعة الحال ، فاذا به يطلع علينا بالحل الآتي : وهو ان يسمع الدعوى بدون عريضة كما لو كنا كتبنا العريضة ، على ان تتعهد له، أنه في حالة اقتناعه بوجود مبررات لاقامة الدعوى ، فلا نصر على اعادة الاجراءات أمامه ، وطبعا كان ذلك يوافقني جدا وحدد لنظر الدعوى يوما معينا ، وكان علينا ان نحضر شهودنا من بعض من حضروا الاجتماع ليقرروا ان شيئا مما زعمته الجريدة لم يحدث في الاجتماع ، واستدعينا ثلاثة شهود ممن حضروا الاجتماع ولهم وزنهم في المجتمع ، وأولهم كولونيل سابق في الجيش الامريكي خلال الحرب ، وثانيهم سيدة محترمة تحتل وظيفة ناظرة مدرسة ، والثالث كاتب امريكي ممن اضطهدهم اليهود ويسدون دور النشر في وجهه ، فيضطر لطبع كتبه على نفقته ويوزعها بنفسه كتابا كتابا ، وقد كان الشهود متحمسين لفكرة الدعوى ، ويقولون ان احدا لم يجروء من قبل على جر يهودي صهيوني الى محكمة جنائية ، وانه لو قدر لي النجاح في هذه الدعوى ، لوجب على الامريكان ان يقيموا لي تمثالا ، واني اذكر ذلك لاظهر كيف انه يوجد في صميم نيويورك من هم موتورون من اليهود كما هو الشأن في أي بلد آخر .

محاولة الاعتداء علي :

وبدىء في نظر الدعوى . وفي محفوظاتي النص الرسمي لكل ما دار فيها ، وهو سجل مكتوب على الالة الكاتبة تبيعه المحكمة لاصحاب الشأن،

وقد نظرت الدعوى على يومين متتاليين ، وكانت المحكمة تتوقف ساعة الظهر لتناول الغداء ثم تعود للانعقاد واستئناف مناقشة الشهود ، وقد ضاق فريق فيكتور ريزل بكل ذلك وبدأوا يفقدون أعصابهم ، فقد فوجئت بعد ان تمت الاجراءات وأعلن القاضي انه سيصدر قراره بعد أسبوع مع التصريح بتقديم مذكرات ، أقول فوجئت بعد انصراف القاضي من حجرة الجلسة ، وانصراف ريتشاردسون من الحجرة ليوصل زوجته وكان قد احضرها لتشهد الجلسة التاريخية واتهز أصحاب فيكتور ريزل هذه الفرصة ليصبوا علي جام غضبهم ، فاذا بهم يحيطون بي ويوجهون الي السباب والشتائم ، ويشرع واحد منهم في محاصرتي في ركن القاعة ، وقد أصبح من الواضح ان شيئا ما سيحل بي ، ودار الموت في رأسي فارتسمت على شفتي ابتسامة صفراء وتظاهرت بالبرود وعدم المبالاة ورحت أقول لمن راحوا يضغطون علي : ما أسعدني ان اقتل بأيدي اليهود في امريكا لاكون شهيدا في كل العالم العربي ، ولكن من كان يلاحقني ويدفعني الى الوراء قال لي : لا ، لن نقتلك ولكن، وعند هذا الحد عاد ريتشاردسون من الخارج بعد ان ودع زوجته وادرك بنظرة سريعة ماذا يجري ، فاذا به يصرخ منددا بالجماعة وكان صوته المفاجيء هو وحده الذي انقذني من هول ما كان سيحل بي ، وأبسط صورة أنه كان سيكون (علقة سخنة) من هذا البلطجي الذي جاءوا به لهذا السبب من غير شك ، واشهد امام الله ان ريتشاردسون كان بطلا مغوارا في هذه اللحظة الحرجة فلم يتردد لحظة في مواجهة الحشد ليس فقط بالتحدي ، بل وبالانتهار والتهديد ، واختص زملاءه المحكمين بأكبر قدر من التقريع لسماحهم بحدوث ما حدث، وعند هذا القدر من الارتباك الذي أحدثه دخول ريتشاردسون المفاجيء ، وما اظهره من استعداد للقتال كنت انا قد نجوت خاصةوان حراس المحكمة عادوا للظهور وأحس محامو فيكتور ريزل انهم أوشكوا أن يتورطوا في تعقيدات جديدة ، فرأوا ان يحسموا الموقف وينهوه عند هذا الحد .

مؤامرة الصمت :

على ان هذه الاحداث كلها كانت الصحف بدون استثناء قد تجاهلتها، فلم تشر اليها بحرف واحد فقد كانت قضية مرفوعة من عربي على صحفي يهودي، وهناك في نيويورك مبدأ متفق عليه ان لا تشير الصحف لهذا النوع من القضايا ، فكيف اذا كان المتهم صحفيا عتلا مثل فيكتور ريزل .

صدور القرار :

وقد فرحت كل الفرح بتأجيل اصدار القرار لمدة اسبوع اذ أنه يزيد في قلق أصحابنا ولم يكن لدي ادنى شك في ان القرار سيصدر برفض الدعوى ولكني كنت راضيا أشد الرضا عن مجريات الامور حتى هذه اللحظة ، وحسبي ان محاكمة قد جرت بالفعل وان الجماعة قد ارهقت أعصابها الى حد الانفجار ، وجاء تأجيل اصدار القرار لمدة اسبوع ، امعانا في الضغط على أعصاب الجماعة الذين كانوا يأخذون الموضوع بغير اكتراث ، فاذا الامور تتطور لتأخذ هذه الصورة .

وفي اليوم المحدد لصدور القرار حضرنا الى المحكمة فداعب القاضي محامي ريتشاردسون وقال له ان مذكرته اتعبته لكثرة ما تناولته من مواضيع التاريخ ، والحق انني انا نفسي ضقت ذرعا بنسخة المذكرة عندما اعطاها لي ريتشاردسون لمطالعتها لكثرة ما تضمنته من استطرادات تاريخية تتصل بالصهيونية ولا علاقة لها بموضوع الدعوى عن قرب أو بعد ولكني كنت أعرف ان هذه كلها اجراءات شكلية ، اما القرار نفسه فلا يمكن ان يكون الا بالرفض ، فما كان لاي قاض امريكي ان يحطم مستقبله ، وربما حياته كلها بمعاداة الصحافة الامريكية كلها من أجل سواد عيون شاب صغير يزور الولايات المتحدة زيارة عارضة ولا يجب ان تتصور ان قاضيا جريئا في مدينة نيويورك هو عمر بن الخطاب وأصدر الرجل القرار المنتظر وهو عدم السماح لنا بالمضي في رفع الدعوى ، وظننا ان القاضي قال كل ما عنده فبدأنا بالتحرك للانصراف ولكنه نادانا ثانية نحن والخصوم ليقول

لنا : ان أسوأ ما في الموضوع هو العناوين التي وضعت للمقال (داعية اجنبي يعقد اجتماعات مناهضة للسامية في نيويورك) ولكنه لم يثبت أمام القاضي ان هذه العناوين من وضع فيكتور ريزل ، وفي امريكا واضع العناوين في الصحف هو محرر غير كاتب المقال ، ولو رفعنا الدعوى على كاتب العناوين ، كما رفعناها على محرر الجريدة المسؤول ، لتغير الموقف، وشكرنا القاضي على هذا الانصاح الذي أراح نفوسنا ، وتحركنا صوب الباب لنغادر القاعة ، فاذا به يستوقفنا مرة أخرى ويدعونا ليقول لنا ما هو أخطر ، اذ قال لنا ان قراره خاص بالدعوى الجنائية ولا يزال الباب مفتوحا أمامنا لرفع دعوى مدنية ضد الصحيفة ، وعند هذا الحد تصورت ان أصحابنا يوشكون ان ينفجروا من الحنق ضد هذا القاضي الذي يوشك ان يحرضنا على رفع قضية مدنية ضد الجريدة ويلوح لنا انها مضمونة الكسب .

القضية تؤدي دورها :

واذا كانت القضية قد انتهت بالرفض ، ولكنها حققت أغراضها ، فقد أدرك الصهاينة ان لحمي مر ، وأنهم لا يعرفون ما هي عواقب التشهير بي ، فاكتفوا باستعمال سلاحهم المضمون ، وهو عدم الاشارة الي بالخير أو بالشر .

مع النيويورك تايمس :

على ان الذي لا شك فيه ان ما جرى في هذه القضية قد هيأ لي بعد ستة أشهر من اقامتي في أمريكا ان احرز نجاحا مع جريدة النيويورك تايمس ما كنت لأحصل عليه لولا هذه القضية وخلاصة الحادث ان من المألوف في امريكا ان تنشر صفحات كاملة في الصحف لتعالج شتى القضايا ، وذلك عن طريق الاعلان ، وقد قصدنا الجريدة ، جريدة النيويورك تايمس لتنشر اعلانا بحجم صفحة نعالج فيه القضية المصرية ، وقدمنا المادة المعينة لهذه الصفحة وقد كان عنوانها الاكبر « لن يكون هناك سلام في العالم ما بقي

هناك استعمار. ان مصر تطالب بجلاء الجيوش الأنجليزية من بلادها وبوحدة وادي النيل ، وقد قبلت منا ادارة الجريدة المبلغ المقرر لنشر هذه الصفحة على سبيل الاعلان وهو ثلاثة آلاف دولار فيما اذكر ، ولكن الايام مضت تلو الايام دون أن تظهر الصفحة ، وكان من الواضح ان العناصر الصهيونية قامت بدورها للحيلولة دون النشر ، ولما أوشكت أن أياس من امكـان النشر ، طلبت مقابلة احد المديرين المسئولين . ولقد تشاددت معه مشادة كلامية واسمعته قوارص الكلم ، وكيف اننا في بلادنا تتصـور مؤسسة النيويورك تايمس شيئا مثاليا،وها هي تتعاقد على تنفيذ أمر وتتقاضى المقابل ثم لاتنفذ ما تعهدت به ، ومضيت في اقوالي معبرا عن اشمئزازي ورفعت صوتي عاليا وانا أتحدث بانفعال وكان صوتي يصل الى عشرات المحررين، حيث كنا نقف في وسط صالة تغص بعشرات من المحررين ، ولم يجـد محدثي من سبيل لايقاف هذا السيل المنهمر من الكلمات الاستفزازية الا ان يضربني ، أو أن يعد بنشر الصفحة وأنها كانت تنتظر دورها ، وقـد اختار الامر الاخير ، ووعدني بنشر الصفحة ، وفعلا نشرت الصفحة في اليوم التالي ، واحدث نشرها دويا في مختلف الاوساط ، حتى لقد أثير موضوعها في مجلس النواب البريطاني ، وقد اتصل بي سفير مصر في واشنطن محمود بك حسن مهنئا وأبدى دهشته من استطاعتي أن أحقق ما فشلوا في تحقيقه مع انهم أبدوا استعدادهم لدفع أي مبلغ من المـال واغلب ظني ان سبب نجاحي هو هذه القضية التي تحدثت عنها ، وقـد أخطأ قسم الاعلانات في قبول الصفحة مني وفي قبض أجرة الاعلان فأصبح النكول بعد ذلك عن نشر الاعلان يعرضهم لدفع تعويضات، ولست أحسب أن المسألة المادية تعنيهم في كثير أو قليل قدر ما كان يهمهم ان يخفوا الى أي حد تخضع الصحيفة للنفوذ الصهيوني .

قضية فلسطين تفرض نفسها :

كان نجاحي في نشر هذه الصفحة عن القضية المصرية في النيويورك

تايمس هو ذروة مجهوداتي التي امتدت من المحيط الى المحيط ، فكانت آخر محاضرة لي في ولاية أورتجون على المحيط الهادي[1] .

وكانت الحملة قد احدثت نتائجها اذ قررت الحكومة المصرية وقتئذ عرض القضية المصرية على مجلس الامن وقد كان هذا هو عين المطلوب ، وبينما كنت أفكر في العودة اذ اندلعت قضية فلسطين في نيويورك والتهب العالم العربي كله بما يجري في نيويورك ووجدتني غارقا حتى الاذقان في ملاحقة تطورات القضية امام الجمعية العمومية لهيئة الامم .

انجلترا تمثل الفصل الاخير من مأساة فلسطين :

كانت انجلترا هي الساعية كما رأينا لتحويل فلسطين الى وطن قومي لليهود وقد استطاعت خلال الربع قرن لتنفيذ هذه الخطة ، عن طريق فتح الباب على مصاريعه أمام الهجرة اليهودية ، وعن طريق تمكينهم من تملك الاراضي ، وأولا وأخيرا بالقضاء على مقاومة الشعب الفلسطيني لتحقيق هذا الهدف وقد ظل اليهود يعملون في كنف انجلترا وفي خدمتها حتى حصلوا على أقصى ما يمكن ان تنيلهم اياه انجلترا ، ثم جاء الوقت الذي لم تصبح فيه انجلترا هي سيدة العالم ، وانتقلت هذه السيادة الى امريكا ، وقد قررنا فيما مضى ان سياسة اليهود التقليدية ، هي ان يضعوا أنفسهم في خدمة الأقوى دائما ، ومن ناحية اخرى فقد بدأ الوجود الانجليزي في فلسطين يقف حجر عثرة في اتمام المخطط الصيهوني وهو طرد الاغلبية العربية من فلسطين واعلان دولة اسرائيل ، وقد كان من المتعذر على الانجليز ، ان يتم ذلك وهم في فلسطين ، فوعد بلفور الذي طالما تمسك به الانجليز واعتبروه أساس سياستهم في فلسطين ينص كما رأينا على وجوب عدم الاضرار بالعرب ، وقد رأوا من شدة مراس شعب فلسطين

---

(١) كان منظم هذه المحاضرة هو الاخ الدكتور عبدالله كامل عيد يعاونه الدكتور عزيز صدقي

ابان ثوراته المتكررة من عام ١٩٢٠ حتى ١٩٣٩ ما جعلهم يدركون انهم سيلاقون المصاعب لا في فلسطين فحسب بل وفي العالم العربي كله ، اذا هم سايروا مطالب الصهيونية بأكثر مما فعلوا ، ولكن اليهود كانوا يمضون في ضغطهم من الداخل كما رأينا عن طريق الارهاب ، وكانت الولايات المتحدة تشد أزرهم ، وقد خرجت انجلترا من الحرب العالمية الثانية مهيضة الجناح بالرغم من انتصارها ، ومهددة بالافلاس اذا لم تسعفها امريكا ، واستجابت انجلترا للضغط فأعلنت بدأة ذي بدء (وقد كنا في مطلع عام ١٩٤٧ أنها ستجلو عن فلسطين في ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ وطرحت قضية فلسطين على هيئة الامم (الجمعية العامة) لتضمن الترتيبات اللازمة لما يعقب جلاءها عن فلسطين .

العرب وفصاحة سحبان :

وارسلت الدول العربية وفودها الى نيويورك وكان من بين المندوبين وألمعهم فارس الخوري شيخ سوريا القانوني العظيم ، كما كان من بين مندوبي العراق فاضل الجمالي وزير خارجيته كما ظهر مندوبو السعودية بملابسهم الفضفاضة وعقالاتهم المذهبة ، وعلى رأسهم الامير سعود (الملك فيما بعد) كما كان هناك السيد عبد الرحمن عزام ليوجه الجميع وينظم صفوفهم ، وسرعان ما تصور العرب أنفسهم في سوق عكاظ فراحوا يتبارون في الخطابة ووصل الامر بهم الى حد ترديد أبيات من الشعر الجاهلي وكانت تعجبني في بادىء الامر خطب فاضل الجمالي (العنترية) ولم ألبث ان سئمتها وعافت نفسي كلام العرب الذين كانوا يتصورون انهم أمام قضاة ، وان مهمتهم تنحصر في اقناع الاعضاء مع انني سرعان ما ادركت ما هو كائن وواقع بالفعل وهو ان هؤلاء المندوبين الممثلين لبلدهم يتلقون التعليمات عن كيفية التصويت من بلادهم وليس من وجدانهم أو ضمائرهم ، وفي ذلك الوقت المبكر كأن لم تكن كتلة العالم الثالث المؤلفة من الافرو آسيويين قد تكونت بعد وكانت الولايات المتحدة

الامريكية تسيطر سيطرة شبه تامة على مندوبي امريكا اللاتينية ومن سوء الحظ ان الكتلة الشرقية وعلى رأسها روسيا كانت بدورها تؤيد جانب قيام دولــة اسرائيل ، ولذلك فقــد كان يسمح للعرب دائما ان يصولوا ويجولوا ويتحدثوا أو بالاحرى يلقوا محاضرات في التاريخ والجغرافيا والاديان المقارنة ، واحيانا في القانون والعدالة وحقوق الانسان والتصفيق يشتد ويعلو حينا ويخفت حينا آخر حسب براعة المحاضر العربي وغزارة علمه ، وكنا نخرج عندما ترفع الجلسات يهنيء بعضنا بعضا على ما احرزناه مــن نجاح ونروح نتنافس في تقدير مــدى حرارة التصفيق واتساعــه واستمراره ، ثم نفاجأ بالقرار الذي يكون قد اتفق عليه وراء الكواليس طبقا لتوجيهات امريكا وروسيا وبما يتفق مــع وجهة نظر اليهود علــى استحياء في بادىء الامر ، وفي صراحة وقحة عندما جد الامر • وقد سئمت هذه اللعبة في وقت مبكر وأعربت عن تشاؤمي بالنسبة للنتيجة النهائية ، وقد سجلت آرائي وافكاري في الصحف المصرية آنذاك وبخاصة في جريدة (الكتلة) التي أفردت لي الصفحات الطوال ، وكان ملخص رأيي الذي خرجت به بعد تجربتي في امريكا ومراقبة ما يجري في هيئة الامم ، ان قضية مصر وقضية فلسطين لن تحلا في المحافل الدولية وانما في مصر وعلى ارض فلسطين نفسها ، فأذعت بيانا على الصحف المصرية والعربية بهــذا المعنى وهكذا عدت من رحلتي الى امريكا وهي من ألطف الصفحات في كتــاب جهادي وقد سعدت فيها بتجاوب الرأيّ العام المصري والعربي ، فقد عشت في امريكا بأموال جمعت لي من سائر طبقات الامة حتى لقد جمعت لــي النقود بالقرش والقرشين في بعض مدارس الاطفال ، ولقد حظيت برضاء سائر الاحزاب المصرية حتى الملك فاروق شكرني بعد عودتي عن طريق مستشاره الصحفي آنذاك الاستاذ كريم ثابت •

وقد نظم لي استقبال شعبي من مطار القاهرة حتى دار الحزب حيث وقفت في سيارة مكشوفة والى جواري زعيــم السودان آنذاك الاستاذ

اسماعيل الازهري وقد سافر النقراشي باشا رئيس الحكومة بمجرد عودتي الى امريكا حيث أبلى بلاء حسنا في مجلس الامن وحصل على قرار بجلاء الانجليز عن مصر ، ولكنه (اي مجلس الامن) توقف عن ان يؤيد وحدة وادي النيل ، ولم يكن الجلاء عن مصر مشكلة فقد أعلن الانجليز منذ عام ١٩٤٦ استعدادهم للجلاء عـن مصر برا وبحرا وجوا ، وتحطمت صخرة المفاوضات حول وحدة وادي النيل .

قضية فلسطين تشغلنا عن كل شيء :

على ان قضية فلسطين سرعان ما التهبت مرة اخرى فطغت على مشاكل مصر وانخرطنا جميعا حكومة وشعبا في تحديات هذه القضية .

* * *

الفصل العاشر

تقسيم فلسطين ـ اندلاع الثورة الفلسطينية ـ مصرع عبد القادر الحسيني ـ اجتماع في الازهر ـ سفري الى دمشق للحرب من اجل فلسطين ـ معسكر قطنه ـ هضبة الجولان ـ دخولي فلسطين ـ انسحابي من عمان الى القدس ـ في غزة ورفح ودير البلح

تقسيم فلسطين :

وقضي الامر ولـم تجد كـل الخطب العربية ، وحتى الاستشهاد بالمعلقات السبع ، وكل اشعار عنترة بن شداد والمهلهل بن ربيعة لم تجد ، وأصدرت هيئة الامم لأول مـرة ولآخر مرة قرارا ظالما عدوانيا بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود ، وهنا اندلعت ثورة شعب فلسطين ، وقد كان هذا وضعا طبيعيا وسليما فمن حق شعب فلسطين ان يثور لنفسه في وجه الدنيا كلها اذا لزم الامر ، ولكن النكبة جاءت مرة اخرى من ناحية الشعر والخطب فقد انزلقت الدول العربية فتدخلت بجيوشها وأصبحت المسألة عدوانا على قرارات هيئة الامم والمجتمع الدولي • وقرارات هيئة الامم هي حبر على ورق ولكن عندما تكون في صالح الدول الكبرى تصبح قضاء نافذا ، وكانت مصيبة الشعب الفلسطيني ان امريكا وروسيا معا قد اتفقتا لأول مرة ولآخر مرة كذلك على تقسيم فلسطين فأصبح الوقوف من ناحية الدول العربية ضد هذا القرار بالقوة المسلحة لا يمكن الا أن يؤدي الـى كوارث ، والعجيب ان هذا هو قدر فلسطين ان يكون تدخل الدول العربية هو مبعث نكباتها ، واني اكتب الآن عام ١٩٧١ والقدس في يد اليهود ، وكل الضفة الغربية في يد اليهود كذلك ، وذلك بسبب تدخل الدول العربية بجيوشها التي تذوب أمام اليهود في ساعات ، بينما تحـل النكبة بشعب فلسطين ونعود الى ما كنا بسببه •

صدر القرار بتقسيم فلسطين وكان أحسن ما في هذا القرار على ضوء ما صرنا اليه هو انه كان يعطي صحراء النقب للدولة العربية ، وأهمية ذلك الامر انه يربط ما بين دول المشرق العربي والمغرب فصحراء النقب هي التي

تربط سينا بالاردن ، ولا يستطيع الانسان اليوم بعد ان حل بنا من النكبات ما حل على يد الابطال المغاوير الا ان يسائل نفسه ، اما كان من الاحسن قبول قرار التقسيم ، ومرة اخرى أقول للانصاف انه حتى لو قبله العرب لما قبله اليهود الذين يعملون وفق خطة مرسومة ونحن اليوم نطالب بصحراء سينا نفسها لا بصحراء النقب ، بعد عشرين سنة من العنتريات والادعاء بأننا سنسحق اسرائيل ونرمي باليهود الى البحر •

مقاومة الشعب الفلسطيني :

أشهد امام الله والتاريخ ان الشعب الفلسطيني لم يقصر في حق نفسه فلم يكد قرار التقسيم يعلن حتى هب الشعب الفلسطيني هبة رجل واحد وامتشق الحسام ، وقاتل عن نفسه وأرضه بفدائية ولكن الزمن كان تغير بحيث اصبحت الاسلحة القديمة من العهد العثماني التي كانت في يد الفلسطينيين أصبحت غير مجدية ومنذ اللحظة الاولى بدا للعيان حاجة الشعب الفلسطيني الى السلاح وهو ما نبه اليه الحاج أمين الحسيني زعيم فلسطين من اللحظة الاولى فناشد البلاد العربية ان تمد الثوار الفلسطينيين بالمال والسلاح وهم كفيلون ان يؤدوا المهمة بنجاح ، ولكن الدول العربية كانت تعد خططها الخاصة كما هو الشأن بالنسبة لسوريا كما سنرى •

استشهاد عبد القادر الحسيني :

بذل الفلسطينيون جهدهم فبدأنا نطالع انباء غزواتهم وانتصاراتهم ، ولا شك انها جريا على العادة كانت مشوبة بالمبالغة والتهويل ، ولكنها على كل حال كانت خالية من رنة اليأس وكانت تفيض بالتفاؤل والامل ، وقد كان بطل المقاومة هو عبد القادر الحسيني الذي قطع الطريق على اليهود بين تل ابيب والقدس فأوقع بعديد من قوافل اليهود ، وفوجئنا في مصر ذات صباح بنبأ استشهاد عبد القادر الحسيني فوقع النبأ على المصريين وقع الصاعقة ، وليس يتصور ابناء الجيل الجديد ، وحدة المشاعر التي كانت تربط الشعب تلقائيا بدون أي توجيه أو منظمات خاصة ، لقد احدث موت

عبد القادر الحسيني موجة من الحزن والغضب لست أتصور انني شهدت مثلها من قبل أو من بعد .

اجتماع في الازهر :

واحتشدت جموع الشعب كمألوف العادة في تلك الايام في جامع الازهر ، وكان على ثلاثتنا صالح باشا حرب وحسن البنا وانا ان نخطب في هذه الجموع ، وقد كانت قيادة الجماهير بالنسبة لقضية فلسطين قد آلت الينا بعد ان وقفت الاحزاب التقليدية منها موقف المتحفظ من الناحية الرسمية على الاقل .

ووقف صالح حرب على منبر الازهر الشهير وأشهر مسدسا وأعلن ان هذا هو الاسلوب الذي يجب ان نتحدث به عندما نتكلم عن قضية فلسطين ، وتلاه على المنبر المرحوم حسن البنا ، وألقى خطابا من خطبه التي كانت تهز الجماهير بكثرة ما فيها من استشهاد بآيات القرآن والتي كان قد برع في استعمالها ، وارتج المسجد بنداء الاخوان المسلمين التقليدي (الله اكبر ولله الحمد) وجاء دوري في الكلام وارتقيت درجات المنبر ، واستقبلني الجمهور أحسن استقبال ، واذا بي أفاجأ انا نفسي قبل الجماهير ، بجملة واحدة تجري على لساني « انا مسافر الى فلسطين ، فمن اراد نصرة فلسطين فليحمل سلاحه وليتبعني » واسرعت أهرول نازلا درجات المنبر قبل أن يتبين الناس ، ماذا قلت أو ماذا حدث .

في معسكر قطنة بسوريا :

كانت سوريا سباقة في اعلانها عن فتح معسكر لتدريب المتطوعين الراغبين في الجهاد من اجل فلسطين ، وذلك في منطقة قطنة بالقرب من دمشق ، والى هذا المعسكر سافرت والتحقت به رغم اعتراض شكري القوتلي رئيس جمهورية سوريا آنذاك على أساس انني أنفع مني وراء الجبهة من أكون مجرد مقاتل ، ولكني في هذه اللحظة كنت أريد ان أبدأ بنفسي قبل أن أدعو غيري للتطوع .

وبدأت التدريب في المعسكر وكان الوقت شتاء والجليد يغطي أرض المعسكر ، وتوافدت على أثري كما توقعت عشرات من ابناء مصر الفتاة مؤلفين كتيبة باسم الشهيد مصطفى الوكيل وعلى رأسها الضابط عبد العزيز حمدي الذي كان أول ضابط في مصر استقال من الجيش المصري احتجاجا على ما فيه من الفساد • ومما يذكر ان النائب السوري (اكرم الحوراني) فعل مثل فعلتي اذ أنه التحق بالمعسكر متطوعا عاديا •

للذكرى والتاريخ :

لست اريد ان اسهب في ذكر تفصيلات لا أهمية لها بعد هذا الزمن الطويل ، ولكن ملاحظة واحدة يجب ان أسجلها للذكرى وللتاريخ لانها تشير الى اعراض مرض يحدث دائما آثاره المدمرة على الجهود العربية • وذلك هو الخلاف والفرقة وهو مرض مزمن لعله من خصائص العرب منذ عصورهم الجاهلية ، وقد شفاهم الاسلام من هذا المرض لفترة قصيرة جدا فاستطاعوا ان يفعلوا الافاعيل ، ثم لم يلبثوا ان ارتدوا الى خلافاتهم الجاهلية ولولا ان شعوبا أخرى غير العرب كانت قد دخلت الى الاسلام ، لما علم سوى الله ماذا كان يحل بالاسلام والحضارة الاسلامية • أقول ذلك بمناسبة ما وقع بين الفلسطينيين في معسكر قطنة ونحن في فترة الاعداد والترتيب اذ وقعت فتنة ذات يوم في المعسكر كادت تحدث نتائج رهيبة لولا ان المتطوعين من حسن الحظ لم تكن لديهم ذخيرة ، وقد دعيت على عجل من قبل المشرفين على المعسكر لاعاونهم على تهدئة الموقف ، وكان الموقف يتلخص في ان المتطوعين الفلسطينيين من طول كرم يرفضون ان يكون رئيسا عليهم متطوع من جنين أو نابلس والعكس بالعكس • ووقفت خطيبا أندد بهذه الروح التي تنذر بأفدح الكوارث ، وعاتبتهم ان اكون قد تركت أولادي وبلادي واجيء لاقاتل بجوارهم وهم بهذه الروح ، ويبدو انهم خجلوا من هذا الكلام فسكنت الفتنة مؤقتا لتندلع فيما بعد في مناسبات أخرى أشد خطرا •

ولم يكن السوريون بأحسن حالا فقد كان متطوعو حمص يكايدون متطوعي حماة والعكس بالعكس وقد شقيت سوريا بالانقلابات العسكرية التي كانت هذه العصبية الضيقة هي التي تحركها •

هضبة الجولان :

وقد حدث ان جـاء صالح حرب باشا ليقيم في معسكر قطنة بعض الوقت فنظموا له رحلة لزيارة هضبة الجولان المطلة على فلسطين ، وذهبت معهم في هذه الرحلة ، وما زلت اذكر بعد هذا العمر الطويل ، كيف وقفنا مبهوتين ونحن فوق هذه الهضبة الشامخة وفي السفح البعيد بعض مستعمرات يهودية ، لقد خيل لنا ساعتئذ ان باستطاعتنا ان ندوسها بالحذاء كما نطأ أي حشرة ، ولم يطف بخيالنا ان سيجيء وقت تحتل فيه اسرائيل مواطىء اقدامنا ، وأحسب ان لو تصور انسان ذلك لوضع في مستشفى المجاذيب •

كنا اول فوج دخل فلسطين :

واكمل الفوج الاول تدريبه واطلق عليه اسم اليرموك ، وتقرر دخوله فلسطين وكنا في شهر فبراير على ما اذكر عام ١٩٤٨ وعلى الرغم من انني لم أكن اكملت التدريبات المقررة فقد طلبت من المختصين ان يلحقوني بالفوج فأذنوا لي بصفة شخصية على أن تلحق بنا كتيبة مصطفى الوكيل في الفوج الثاني • ووضع على رأس الفوج أديب الشيشكلي الذي أصبح فيما بعد مبعث كل الانقلابات العسكرية ، وقد سمعت اثناء وجودي معه ما يشعر بما كان يدور في رأسه ورأس اكرم الحوراني الذي صحبنا بدوره في هذا الفوج ، اذا كانا يقولان سنحرر فلسطين لكي نطهر سوريا •

مآخذي على أديب الشيشكلي :

على الرغم من انني لست رجلا عسكريا من ناحية ، وانني مجرد نفر عادي في الحملة ، فانني لم أتمالك نفسي من الاصطدام مع رئيس الحملة أديب الشيشكلي وهو ما كان من بين الاسباب التي عجلت بعودتي الى

مصر فمنذ اللحظة الاولى لتحركنا ابتدأت ألاحظ بعض تصرفات لم أستطع هضمها من الناحية العسكرية البحتة ، وكان من الممكن ان يباد الفوج بأسره قبل ان يطلق رصاصة واحدة في المعركة لو أراد الانجليز أو اليهود ذلـك •

التحرك ليلا في بلادنا :

بدأ تحرك الفوج ليلا بعـد أن أمدونا بالاسلحة اللازمة والذخائر والمعدات ، وقد رسم لتحركنا خط طويل على طرق جانبية ووعرة في سوريا بمقولة ان لا يعرف العدو تحركاتنا وقد كان ذلك طبيعيا **ومفهوماً ، لذلك** فقد قبلنا بسرور المخاطرة بالسير ليلا على طرقات غير صالحة ، واوشكت سيارات عدة ان تطيح وتهوي في الوادي ، ولكن الله لطف بنا وبعد سير متصل طول الليل وصلنا عند الفجر الى لبنان ، حيث المنطقة التي قررنا دخول فلسطين منها منطقة بنت جبيل ، وكان مـن العجب (وهو موضع مؤاخذتي الاولى) انه وقد أصبحنا أمام حدود فلسطين وقـد طلع علينا النهار فقد طلب منا ان نبقى حيث نحن طوال النهار حتى نعبر الى فلسطين ليلا ، وكان أمامنا حيث وقفنا مخفر انجليزي وكان من بـه من الجنود الانجليز يرقبوننا بمناظيرهم المكبرة ، فعجبت ان نعرض انفسنا للمهالك طول الليل ونحن في أرضنا بدعوى الاستخفاء عن العدو ، حتى اذا اصبحنا قبالة ارض العدو تركنا انفسنا مكشوفين له تماما دون أي ستار أو حاجب ، وقدرت ان اليهود يستطيعون التربص بنا وابادتنا عن آخرنا ، فأفضيت بهواجسي لاديب الشيشكلي ، فأجابني لاول مرة بلطف وكبرياء ان أدع هذه الامور له ، فسكت بطبيعة الحال على مضض •

ومر النهار في تثاقل ، وقد بدأت روح المتطوعين تبرد ويصيبهم الفتور والاعياء ، وقبيل المغرب أي ونور النهار لا يزال موجودا صدر الامر للفوج بالتحرك بعد أن قسم الى فصائل •

وفي روايتي (واحترقت القاهرة) وصفت ما حدث بالدقة وكيف ان

الفوج تشتت وتاه في باقي الجبال ، وكيف عهد الي ان اكون آخر مـن يتحرك مصطحبا مهمات الفوج الثقيلة والمحملة على البغال وكيف تعثرت البغال وكادت تهلك ووصفت حالة الضياع التي وصلت اليها ، الى ان نجوت بمعجزة ربانية لم أعرف كيف تمت ، والمهم ان الفوج عاد للتجمع بعد (التوهان) في بلدة (ترشيحا) وهـي أقرب بلد عربي على الحدود اللبنانية ، وكان هذا الحدث سببا في ان يقلل أديب الشيشكلي من صلفه وكبريائه ، بعد ان اثبتت التجربة كيف ان الفوج كان معرضا للابادة لولا ان الانجليز فيما يبدو لم يعلموا اليهود بمكاننا ، أو ان اليهود طبقا لخططهم المدروسة لم يروا ان يتعرضوا لنا .

ومن ترشيحا نظر الشيشكلي في خريطته العسكرية (جدا) واختار قرية عربية في المنطقة تدعى (بيت جن) وقرر ان تكون هي القاعدة التي يتمركز فيها ، نظرا لمناعتها اذ تقع على رأس جبل تحيط بها الوديان ، ومرة اخرى شددنا اليها الرحال وقد حال دون تكرار الكارثة السابقة اننا كنا نسير في وضح النهار ومرة أخرى أحيل الى روايتي « واحترقت القاهرة » حيث وصفت بالتفصيل ما حدث في قرية (بيت جن) وكيف استقبلنا اهلها من الدروز بروح عدائية[1] ، وكيف بتنا ليلتنا رغم أنوفهم ثم انصرفنا عنهم في اليوم الثاني خوفا من غدرهم وقد تم هذا بناء على نصيحتي التي بدأ الشيشكلي يستمع اليها .

وبعد اكثر من اسبوعين لم يكن لنا فيها عمل الا الانتقال من قرية عربية الى اخرى عربية ولـم تقع أعيننا على يهودي واحد . بدأت صورة الموقف تبدو جلية أمامي فشعب فلسطين هو خير من يحارب عن أرضه التي يعرف كل شبر فيها ، وان كل وافد من خارج فلسطين هو عبء على أهلها وان كل مـا يحتاجه الشعب الفلسطيني هـو ان يزود بالاسلحة الثقيلة والخبراء العسكريين وعند هـذا الحد قررت العودة الى سوريا لتبصير

---

(١) لذلك لم استغرب ان يكون للدروز فرقة في الجيش الاسرائيلي .

المسئولين بذلك وقدمت تقريرا بهـذا المعنى لفوزي القاوقجي وشكري القوتلي ، وعدت الى مصر لأبشر بهذه الدعوة وأروج لها •

دخولي فلسطين من الجنوب :

عدت الى مصر لأراها كلها تلتهب حماسة لنصرة فلسطين فتألفت هيئة وادي النيل ووضع على رأسها علوبة باشا لتنظيم الجهود وتحركت الاخوان المسلمون بكـل قوة لتساهم مساهمة فعالة في الجهاد واضطرت الحكومة نفسها لعمل معسكر لتدريب الفدائيين ، وعندما زرته وجدته يفوق عشر مرات معسكر قطنة وهكذا تحولت مصر كلها الى خلية نحل من اجـل فلسطين ، وفي هذه الاثناء كان الطريق العادي للوصول الى فلسطين اي عن طريق القطار قد أصبح ينقل المتطوعين الى قلب فلسطين مباشرة فبدأنا نرسل المتطوعين عن هذا الطريق الجديد ، وكان موظفو القطارات يتغاضون عن المتطوعين فلا يطالبونهم بالتذاكر وقد سافرت مع احد هذه الافواج ونزلت في مدينـة العريش لاول مـرة في حياتي فراعني خفـة دم المدينة ونظافتها ، وقد كانت قد أصبحت قاعدة للاخوان المسلمين يعملون منها ومن العريش • ركبت السيارة الى رفح فدير البلح • وهنا سمعنا عن جهود الفدائيين وعلى رأسهم شاب مـن الاخوان المسلمين يدعى الحاج حسني المنياوي وقد أراني سيارة صفحها اليهود وقد استطاع ان يستولي عليها وجملة ما سمعناه من أحاديث عن المناوشات بين الفدائيين واليهود ان قوافل اليهود فريسة سهلة على الطرق ، ولكن الهجوم على مستعمراتهم يكلف الكثير وقد سقط كثير من شهداء الاخوان المسلمين في هذا السبيل ، واني اذكر بهذه المناسبة ان أحد دعاة الاخوان المسلمين وقف يخطب الفوج من المتطوعين الذي كنت أصحبه ، فلم يكن له من حديث الا ان يتحدث عـن استشهاد هذا الفريق من المتطوعين ، وراح يحدثهم عمـا سيلقونه عقب استشهادهم من الحور العين ، وعن باقي المسرات التي تنتظر المستشهدين ، وكانت العظة كلها بمثابة النعي ، فلم يعجبني بطبيعة الحال هذا اللون من

الحديث ، فقلت للجماعة اننا لم نحضركم هنا لتموتوا ، ولكنا أحضرناكم لتحاربوا وتنتصروا وتحرروا فلسطين فاذا قدر لاحدكم ان يموت فلن يكون خاسرا ، اذ يأتي هذا النعيم المتحدث عنه ولعل هذا يدلك على مدى ما كان الشباب يتحلى به من روح معنوية عالية ، وقد تألفت كتب عن دور الاخوان المسلمين في هذه الفترة فليرجع اليها من يريد التفصيل[1] .

في مدينة غزة :

ووصلت في تجوالي الى مدينة غزة وكانت تجيش بالحيوية والاعتداد بالنفس ، ولقد القيت خطابا في مسجدها الكبير وما زلت أتصور المسجد المحتشد بالالوف وقد ظهر اليأس على وجوههم جميعا ، وقد أوحى الي منظر الجامع العتيق بذكريات الحروب الصليبية ، أما اليوم وبعد ان اصبحت غزة تحت حكم اليهود فانها اصبحت تثير في نفسي ذكريات انتصارها على شمشون .

وعدت للمرة الثانية بعد اسبوع قضيته في جنوب فلسطين ، دون ان اسمع مجرد طلقة .

في القدس مرة ثالثة :

تدهور الموقف في فلسطين بعد زيارتي الثانية ، وكانت مصر قد أوفدت كتيبة من المتطوعين الممتازين ، وعلى رأسهم بعض ضباط الجيش المصري الذين استقالوا وكان على رأس هذه الكتيبة القائمقام احمد عبد العزيز وقد انضم تحت قيادته كل المتطوعين من مختلف الهيئات وقد استطاع ان يبلي بلاء حسنا الى ان جاء دوره في الاستشهاد فكان موته أشبه بموت عبد القادر الحسيني من قبله ايذانا بانهيار المقاومة في الجنوب .

مذبحة دير ياسين :

ثم وقع حادث لم نفهم مغزاه ساعة وقوعه الا أنه مجرد وحشية

(١) اذكر على سبيل المثال كتاب للاخ كامل الشريف .

وهمجية ودهشنا يومئذ كيف راحت عصابات اليهود المختلفة تتنافس في الادعاء بأن هذا العمل الوحشي من صنعها •

ويتلخص العمل في ان جماعة من اليهود المسلحين هاجموا قرية صغيرة منعزلة اسمها « دير ياسين » فذبحوا كل من فيها من رجال ونساء واطفال وراحوا يمثلون بجثثهم ، فكانوا يبقرون بطون الحبالى ، ويفقأون العيون ويقطعون الايدي والارجل وهكذا هذه هي المذبحة التي راحت عصابة يهودية اسمها على ما اذكر « ارجون نزفاي ليومي » وعصابة اخرى اسمها شترن كل منهما ينسب هذا العمل لنفسه •

أقول لقد عجبنا في ذلك الوقت كيف يتباهى بمثل هذا العمل ، ثم تبين فيما بعد أنــه كان عملا مقصودا ومدروسا ومخططا لترويع العرب وحملهم على الهجرة من فلسطين ، أو بالاحرى من المناطق اليهودية ، وقد نجحت الخطة وبدأ الرعب يستولي علــى الفلسطينيين فشرعوا يغادرون بيوتهم وقراهم ويفروا ناجين بأنفسهم ، وكان ذلك بدء التدهور في الموقف وارتفعت الصيحة من كل مكان بوجوب تدخل الجيوش العربية ، وأشهد انني أنا نفسي كنت من بين الداعين بهذه الدعوة لانقاذ ما يمكن انقاذه ، وكان مقدرا لي أن أدخل فلسطين مرة ثالثة قبيل دخول الجيوش العربية ، وكان دخولي هذه المرة من الوسط أي من عمان الى القدس بعد ان دخلتها من الشمال والجنوب •

لماذا دخلت ؟

كانت الاخبار تترى بتدهور الموقف من ساعة لاخرى كلما اقترب يوم ١٥ مايو الذي حدده الانجليز للجلاء النهائي عن فلسطين وكانت انباء الاشتباكات بين اليهود والعرب تبعث الحزن في نفس الانسان وتعلقت الآمال بدخول الجيوش العربية واعلن ان الملك عبدالله سيكون هو القائد العام للجيوش العربية ، وكان هذا الاختيار بمثابة تسليم (القط مفتاح الكرار) كما يقولون ، اذ نفذ الملك عبدالله الخطة التي رسمها له الانجليز

والامريكان لتحقيق آمال اليهود ، ورأيت ان أسافر الى عمان لأشهد الاستعدادات السابقة على دخول الجيوش العربية ، ووصلت عمان بالطائرة ونزلت ضيفا عند صديقي وزميلي الاستاذ كمال صلاح الدين الذي كان يقوم بعمل قنصل مصر في عمان ، وذهبنا لمقابلة الملك عبدالله ، وكان قصره أشبه بخلية النحل فلا تكاد تمر دقيقة حتى يمثل بعض الضباط في حضرة الملك ، ضباط من مصر ومن الاردن ومن العراق ، وقد اعلن هؤلاء الاخيرون ان الجيش العراقي قد وصل الى (المفرق) وقد جاءوا بغير ذخيرة بمقولة ان الذخائر متوفرة في الاردن فلم يتردد الملك بصراحته المعهودة ان يقول ان لا ذخائر عنده ثم راح الحديث يدور حول اسلوب اليهود في الحرب واظهر الملك قلقه من هذا الاسلوب وأذكر انني قلت للملك ان الله قد ساق له فرصة العمر بعد أن اصبح العرب جميعا يعلقون عليه اكبر الآمال وقال انه سيقوم بواجبه .

مع قنصل مصر في القدس :

وفي عمان قابلت قنصل مصر في القدس ، وكان القتال يدور حولها بين العرب واليهود فتداخل الانجليز بين الطرفين وفرضوا عليهما هدنة مدتها ٢٤ ساعة فجاء القنصل الى عمان ليستريح على ان يعود للقدس لاكمال عملية الجلاء عن القنصلية التي تقع في القسم اليهودي من المدينة ، وقررت ان أصحب القنصل عند عودته الى القدس لآخذ حظي من لحظات الضيق والرعب وسط هذه الفوضى التي أصبحت تسود فلسطين . وعلى الرغم من ان اعصابنا كانت متوترة بمجرد دخولنا فلسطين فقد كان الهدوء يسيطر على كل مكان وكان جمال الطبيعة يتزايد من حولنا كلما اقتربنا من القدس . وأخيرا وصلنا الى المدينة المقدسة ثم الى دار القنصلية ، ليس فقط بدون حادث يذكر بل بدون أي ملاحظة ، وبتنا في القنصلية المصرية وكانت تحت حراسة فصيلة من الجيش المصري ، وكان من المقرر ان تنتهي

الهدنة التي فرضها الانجليز في الساعة الثانية عشرة ظهرا ، وكان الخط الذي توقف عنده القتال يقع على تخوم القنصلية المصرية بحيث اعددنا انفسنا لمعاناة الاصطدام الذي سيستأنف ولكن الساعات مرت دون ان يحدث شيء وأعلن ان الانجليز قد مددوا المدة وهكذا عدت من فلسطين لثالث مرة دون ان اشهد أو حتى اسمع طلقات النـــار وأحسب ان الذنب ليس ذنبي ولكن هكذا شاءت ارادة الله .

* * *

الفصل الحادي عشر

دخول الجيش المصري فلسطين
تهويل ثم خذلان ـ حصار الفالوجا
ما قيل عن اسلحة فاسدة ـ الرؤساء
يفقدون مناصبهم ـ الخلاصة ـ
النكسة

ودخل الجيش المصري :

وقبيل حلول ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ صدرت الاوامر للجيش المصري للتحرك ، وقد كان محمود فهمي النقراشي باشا رئيس مجلس الوزراء معارضا في ذلك ولكن الملك فاروق أصر على دخول الجيش وأصدر أمره المباشر لحيدر باشا وزير الدفاع بالتحرك فاضطر النقراشي باشا للخضوع في نهاية الامر ، ودخل الجيش المصري من الجنوب . ولما كان جنوب فلسطين حتى مدينة غزة قد تقرر ان يكون قطاعا عربيا ، فلم يلق الجيش المصري في بادىء الامر أي مقاومة ولكن الموقف صور في مصر على انه انتصار ساحق وما زلت اذكر اجماع المصريين في ذلك الوقت على الفخر والاعتزاز بجيشهم وكان من التعليقات التي سمعتها يومئذ والتي ترمز لاحساس الشعب بجميع طبقاته ما قاله جراح نابه في ذلك الوقت اذ قال لي : لقد ظهر الآن أنه بالرغم من الفساد الذي طغى على كل حياتنا فقد ثبت ان قطاع الجيش قد ظل سليما ونجا من هذا المصير . وهذا التعليق يدلك على مدى الوهم الذي عشنا فيه الايام الاولى ثم توقف الجيش بمجرد اقترابه من خط الدفاع اليهودي عند مستعمرة اسدود ولم يستطع ان يتقدم خطوة واحدة ، وزعموا بعد ذلك انهم استولوا على مستعمرة اسدود ، والمهم اننا لم نسمع بعد ذلك الا عن الهزائم والصعوبات التي يلقاها الجيش المصري .

ما قيل عن خيانة الملك عبد الله :

واعلن عن خيانة للملك عبدالله ، وكان الجيش الاردني قد دخل فلسطين بدوره دون ان يصادف اي مقاومة اذ كان بدوره يزحف في القطاع

العربي واستولى فيما استولى عليه على مدينتي اللـد والرملة وفوجيء العرب بالجيش الاردني يجلو عن المدينتين بدون قتال وسلمهما لليهود وقد تم ذلك بطبيعة الحال باتفاق سري بين الملك عبدالله واليهود على ان يحتفظ بما احتلته جيوشه دون ان يتعرض اليهود له في مقابل تخليه عـن اللد والرملة • وقد نفـذ الاتفاق ، وانتهز قـادة الجيش المصري ليعلنوا ان جناحهم اصبح مكشوفا واصدروا الامر للجيش بالانسحاب ، وانسحب الجيش المصري وعزل قائد الجيش ، وجيء بقائد جديد ، وقد نقل لي فيما بعد عن لسان هذا القائد انه لولا الفدائيين من الاخوان المسلمين ، لوصل الجيش المصري في انسحابه الى العريش دخل الحدود المصرية •

وبقي لكي تكمل صورة ما حدث بسرعة ان أذكر ان الجيش العراقي لم يطلق رصاصة واحدة في المعركة وقد اشتهرت كلمة قائده «ماكو أوامر» أي ليست لديه أوامر باطلاق النار ، وأخيرا انقذت هيئة الامم العرب من فضيحة محققة اذ أمرت بايقاف اطلاق النار •

حصار الفالوجا :

ليس هدفي ان اكتب تاريخا مفصلا لوقائع الحرب وانما اشير فقط الى الخطوط العريضة في سير الحوادث ، فبعد انسحاب الجيش المصري من قطاع الساحل خلف وراءه في الداخل في منطقة عراق سويدان وعراق المنشية والفالوجا فرقة من الجيش المصري حوصرت فيما اصبح يسمى حصار الفالوجا حيث مكثت هذه الفرقة محاصرة باليهود بضعة شهور ، ثم جرت مفاوضات بـين رؤساء هذه الفرقة وبين اليهود على الانسحاب والعودة الى مصر ، وقيل ان اليهود طلبوا في باديء الامر تجريد الفرقة من سلاحها ولكن المصريين رفضوا ذلك ، وانتهى الامر بموافقة اليهود على ان تنسحب الفرقة بأسلحتها ، وعادت الفرقة الـى مصر واقيم لهـا استقبال عظيم كما لو كانت قد فتحت فلسطين ، وصور ما حدث على انه انتصار عظيم ، وقد كنت انا نفسي ممن ابتلعوا هذه الفرية ، فقد حدث

ان طالعت مقالا في اخبار اليوم دبجته يراعة الصحفي الكبير محمد حسنين هيكل صور فيه ما حدث في الفالوجا على انه انتصار باهر فأخذ المقال بلبي وقررت أن أترجمه وأوزعه في انجلترا وقد كنت مسافرا اليهــا في احدى رحلات الدعاية ، ولاول مرة اصبت بخذلان مريع فقد كان كل من يطلع على هذا النصر المزعوم ينظر في سخرية واحتقار أحسست بهما رغم الادب الانجليزي المفرط •

لفت نظر :

وقد كان جمال عبد الناصر احــد ضباط هذه الفرقة المحاصرة في الفالوجا ويقول لنا انه بدأ تنظيم الضباط الاحرار في هذا الوقت • والذي يعنينا من ذلك كله ان تفكير جمال عبد الناصر لعمل حركة قد بدأ وهو ضابط مصري يدافع عن فلسطين عام ١٩٤٨ ويكون من غير الصحيح ما يزعمه البعض مــن ان القومية العربية وتصدي مصر للاهتمام بقضيــة فلسطين قد نشأ فيما بعد •

رد فعل الهزيمة :

واليوم وبعد اكثر من عشرين سنة على هذه الحوادث ، اليوم ولم تعد اجزاء من فلسطين هي المحتلة ، بل ان بلادنا المصرية هي المحتلة ، وبقية فلسطين بما فيها القدس محتلة وأراضي سوريا محتلة ، والعالم العربي قد ألف ذلك وارتضاه ، فــان الانسان ليعجب لموجة الغضب التي اجتاحت العالم العربي يومئذ وبالنسبة لي انــا شخصيا فقد آليت على نفسي ان احارب الملك فاروق ما بقي في عرق ينبض ، وتلقفت ما قيل من انه كانت توجد ذخيرة فاسدة وأن حاشية الملك كانت تتجر لحسابه في هذه الاسلحة، أقول اتخذت من هذه القضية منطلقا لكي اهاجم الملك فاروق بكل عنف • فكان من بين ما قلته في احدى مقالاتي بعــد ان تحدثت عن العصابة التي تحكم البلد ولم تكن هذه العصابة الا حاشية الملك ثم قلت :

لا بد من تكوين لجنة برلمانية قومية تضم ممثلين لمختلف الاحزاب

ويشترك فيها بعض القضاة وممثلون لمختلف وحدات الجيش وتتولى هذه اللجنة مهمة تطهير الجيش من كل العناصر الفاسدة التي غشيته في ظل السياسة المنكودة ، سياسة جعل الشعب وقفا على خدمة أغراض خاصة وتحقيقا لمصالح حفنة قليلة من المزورين والمرتشين الذين لم يتورعوا ان يكون غناهم على حساب بلدهم ودماء اخوانهم . ويجب ان يكون لهذه اللجنة مهمة انشائية بعد ذلك وهي وضع دستور الجيش وتحديد رسالته والتي تتلخص في شيء واحد وهي الاخلاص للوطن والشعب في الحدود التي رسمها وبينها الدستور . ان الجيش هو جيش الامة وليس جيش فرد من الافراد . والامة هي التي تتفق عليه . ودافعو الضرائب من أبناء الشعب هم الذين يدفعون مرتبات هؤلاء الجنود وهم الذين يسلحونهم فمهمتهم الاولى ان يكونوا في خدمة الشعب لا في خدمة اي انسان آخر ، وعلى اللجنة البرلمانية الكبرى ان تضع الاسس والقواعد لتي تحقق هذه الاوضاع السليمة .

وعليها فوق ذلك ان تضع البرنامج الانشائي الذي من شأنه ان يهيىء لهذا الجيش السلاح الكافي غير معتمد على الانجليز والامريكان بأي حال من الاحوال . هذه هي نصائحنا وهذه توجيهاتنا . والكلمة الآن لمن بيدهم الامر ان شاءوا استمعوا الينا وان شاءوا أعرضوا فلا يلوموا الا نفسهم عندما يقوم الانفجار فيدعون الجيش الذي اعتمدوا عليه طويلا لمقاومة هذا الانفجار فلا يجدونه أو بالاحرى يجدونه ولكن في حالة انفجار هو ذاته .

وفي مقال آخر بعنوان « بوللي حيدر كريم ثابت يجب تطهير مصر من هذه العصابة ، وقد ختمته بقولي :

« ان الجيش يريد اقصاء هذه العصابة والشعب قبل الجيش يريد هذا ، فلتحذر الحكومة مغبة ابقاء هذا النفر الملوث في مراكزه فان ذلك لا يلبث ان يهدد النظام بأكمله كما قلنا .

وفي مقال آخر بعنوان « من المجرمون الحقيقيون في قضية الجيش » أشرت الى ان الملك هو المسئول الاول ويجب ان يدفع ثمـــن مسئوليته ، وكان مما جاء في هذا المقال :

« قضي الامر وأعلن قرار الاتهام في قضية الجيش فلم تعد المسألة مسألة اشاعات واراجيف أو كلمات تلقى على عواهنها وانما وثائق رسمية واتهامات مـــن صاحب الدعوى العمومية سيعرض أمرها وأمر مرتكبيها على القضاء » .

ونريد ان نسارع فنهنىء النائب العام ومعاونيه على هـــذه النتيجة الموفقة التي ستذكر لهم بالفخر على طول الايام . سيذكر التاريخ أنه كان في مصر سنة ١٩٥٠ نائب عام قام بواجبه حتى النهاية وبذل في سبيل ذلك صحته وعرض حياته ومنصبه للخطر . ولم يسمح بالتهويش أو التهريج أو الارهاب ان تؤثر على نفسه فمضى في طريقه الذي رسمه له القانون حتى وصل الى ختام جهاده بتقديم المتهمين للمحاكمة بالرغم مـــن ضخامة مركزهم وعلو شأنهم في الدولة .

ونريد ان نذكر في هذه الصورة .. صورة الوزير فؤاد سراج الدين الذي حاول ان يطمس هذه الحقائق فلا يطلع عليها الضوء فاعتبر ان مجرد التنبيه عليها في مجلس الشيوخ هو جريمة من اعظم الجرائم يستحق عليها الشيوخ ان يطردوا من المجلس .

ونحن نريد ان نحذر الرأي العام من ان ينزلق فيتصور ان هذا القرار قد وضع يده على المجرمين الحقيقيين في هذه الدعوى . وان هذا النفر المنكود من الضباط الذين يقدمون للمحاكمة هم المسئولون أولا وأخيرا عن هذه الاعمال التي وقعت وانه بمجرد ان يحكم عليهم سواء بالبراءة أو الادانة فقد صفيت المسألة وانتهت وتطهر الجيش وتطهرت البلاد من المجرمين .

نريد ان نحذر الرأي العام ان ينظر الى هذه القضية نظرة شخصية وبهذا يخرجها عن جوهرها واطارها الحقيقي ويفرك المجرمون الحقيقيون

أيديهم فرحا وسرورا ان الرأي العام قد وقع في الشرك وقبل الضحية التي قدمت له • يجب ان لا ينخدع الرأي العام عن حقيقة الفساد الذي يحارب وحقيقة العلة التي تشكو منها البلاد والتي ليست هذه القضية سوى عرض من اعراضها ومظهر من مظاهرها •

ليس يكفي ان تقول النيابة عن هؤلاء المتهمين الذين اتهمتهم انهم متهمون بكذا أو كيت لكي يكون هذا بمثابة حكم على اجرامهم فقد يصدر الحكم عليهم بالبراءة ، وقد يصدر القضاء حكمه عليهم بأحكام مخففة بعد ان يكتشف اعذارهم المخففة للمسئولية وقد يشتد على البعض ويخفف على البعض •

لذلك فلا ينبغي ان يشغلنا كثيرا هؤلاء المتهمون وهل يحكم عليهم أو لا يحكم عليهم • فهذه مسألة اصبحت الآن في يد القضاء الذي يطبق موازينه القضائية التي لا يمكن ان تختل أو تضطرب في يده لشناعة الجريمة أو لشخصية المتهم • الى آخر هذه الاعتبارات التي يتأثر بها الرأي العام •

فلندع التهم ومدى نسبتها الى المتهمين ولنتكلم عما يجب ان يشغلنا نحن أبناء هذا الشعب صاحب الحق في الدفاع عن كيانه ومحاربة الآفات والعلل التي تهدده في وجوده •

ثابت من قرار الاتهام ان هناك ملايين من الجنيهات دفعت لشراء صفقات من الاسلحة التي أثبت الاستعمال انها كانت تالفة وانها غير صالحة وانها هي التي أدت الى هزيمة الجيش المصري في فلسطين •

وثابت من قرار الاتهام ان هذه الحقائق كلها لم تكن مجهولة ولا منكورة • بل كانت معروفة ومشهورة ومسجلة بحيث ان ديوان المحاسبة بمجرد ان وضع يده على أوراق وزارة الحربية اكتشف كل هذه الحقائق في غير عناء ولا مجهود • يريد الشعب ان يعرف من هو المجرم الذي تستر على هذه الجرائم •• ومن هو المجرم الذي شجع المفسدين ان يفسدوا والمرتشين ان يرتشوا ، والمختلسين ان يختلسوا والضباط الفقراء

ان يغتنوا في يوم وليلة بحيث تصبح سيرتهم على كل لسان ومع ذلك فلا يحقق معهم ولا ينظر في أمرهم ولا يقال لهم مهلا .. مهلا .

ان هذه الجرائم التي يثبتها قرار الاتهام كانت تنشر على صفحات مجلة روز اليوسف مشفوعة بالمستندات والادلة فلم يتحرك احد لوضع حد لهذه الجرائم لولا ان استقال رئيس ديوان المحاسبة وأثار الموضوع مصطفى مرعي في مجلس الشيوخ فتطورت الامور حتى وصلت الى النائب العام الذي أوصلها الى هذه النتيجة . يريد الشعب ان يعرف من الحكومة ومن مجلس البرلمان من هو المجرم الحقيقي أو المجرمون الذين مكنوا لنفر من الضباط ان يرتكبوا مـا ارتكبوا . يقولون ان ولاة الامور في الجيش عندما كانت تصلهم هذه المعلومات كانوا يغارون على سمعة الجيش من ان تخدش فكانوا يرون الاغضاء عنها حرصا على سمعة مصر وسمعة البلاد وهنا الدفاع يستقيم ويكون مقبولا لـو انهم أبعدوا الاشخاص المشتبه فيهم في هدوء وبصمت ليوقفوهم على الاقل عند حدهم . أما ان يتركوا للتمادي فيما يفعلون بحجة ان هذا هو السبيل للحرص على سمعة الجيش وسمعة مصر فهذا هو الافك الذي لا يجوز حتى على الاطفال . تقارير تكتب عن ذخائر فاسدة وانها لا تصلح ثم لا يحاسب الذين قالوا وكتبوا انها صالحة . ملايين من الدولارات تدفع لهذه الشركة او تلك ثم لا يقدم في مقابل ذلك شيء ذو فائدة .. قنابل تقتل جنودنا وضباطنا . ويرتفع الصراخ من كل جانب فلا يكون تحقيق أو شبه تحقيق ، والعجلة تدور ... تدور بكل قوتها ، ضباط عظام يسرقون ويختلسون ويشرون على حساب هذا الشعب المسكين .

فعلام يدل ذلك .. يدل على ان العهد كله هو عهد تسابق علـى اختلاس أموال هذا الشعب .. وعلى الرغبة في الحصول على المال بـأي سبب وبأي سبيل لشراء العزب والاطيان واقتناء ألوف الافدنة وبنـاء العمارات واقتناء السيارات .. هذا هو الهدف ، وهذه هي الغاية لكـل

موظف كبير في هذه الدولة ، ولكل غني ، ولكل صاحب جاه وليس يهم طريق الحصول على المال •• هل من طريق السرقة أم من طريق الاختلاس ، ام من طريق الرشوة •• أم عن طريق لعب القمار •• أم من استنزاف جهود العمال والفلاحين •• فالمهم هو الحصول على المال •• الحصول عليه بأي ثمن وبأي اسلوب لاراقته بعد ذلك على الشهوات الجنسية واللذات الجسدية الفارغة •

لا يمكن الا ان يكون ذلك هو شعار العهد الذي ترتكب فيه هذه الجرائم ، والا لما أمكن ان تقع لو ما تصور العقل امكان وقوعها •

سوف يأتي من بعدنا جيل يتصفح التاريخ فيقف مبهوتا امام هذه الجرائم ويعجز عن تصور كيف كان يمكن ان تقع •

ولذلك فنحن نقول ان هذه الجرائم قد وقعت لان روح العهد كلها كانت تبرر وقوعها • فقد بلغ استهتار الحكام بالشعب الى الحد الذي جعلهم لا يقيمون له حسابا •• وأصبحت أكبر الجرائم تتحول الى عناصر عظمة للمجرم متى درت عليه مالا مكنه من اقتناء ألوف الافدنة أو انشاء العمارات الشاهقة •

ألست ترى الوزارة تدفع ثلاثة ملايين من الجنيهات لشراء ذرة دون ان تحصل على ضمان ، ولا ترى الحكومة في ذلك أي حرج بل هي شديدة الدهشة لهؤلاء الذين يثيرون ضجيجا حول هذا التصرف •

ألست ترى الحكومة عندما دلها رئيس ديوان المحاسبة على هذه المخالفات في الجيش تلوي كشحها وتعرض عن الرجل الذي خالف الذوق والكياسة فتضطره للاستقالة •

فالمسألة اذن ليست مسألة هذا الضابط أو ذاك ، أو هذا الكبير أو ذاك • وانما هي مسألة النظام كله ، والعهد كله الذي أصبح يتلخص في هذه الكلمة (فساد في فساد) !

ولذلك فان الشعب يطالب بأن لا تتصور الحكومة أن الامر قد انتهى

عند هذه القضية وتقديم هذا النفر من المتهمين . وانما القضية الكبرى هي التي يجب الآن ان تفتح ، قضية هذا الشعب .. قضية الدستور .. قضية الرأسمالية .. قضية النزاهة والطهارة التي يجب ان تكون شيمة ولاة الامور في هذه البلد .

ان البرلمان مطالب أن يبادر بتأليف لجنة عليا من أعضائه للتحقيق على أوسع نطاق في الاسباب التي أدت الى هذه المصيبة والكارثة لاستئصال العلل الرئيسية التي تسمح بقيام هذا النوع من الجرائم ، الذي يعرض كيان البلاد للضياع .

ان على أبوابنا يقف عدو خطر صعب المراس .. عدو مسلح بالعلم والفن والمال والقوة وتشد ازره كل قوى الاستعمار .

على أبوابنا عدو ينمو في كل يوم ويترعرع ويشتد ساعده، وسيفاجئنا ذات صباح بطرق أبوابنا واختراق حصوننا ، والتوغل في أحشاء بلادنا تمهيدا للسيطرة علينا سيطرة تدمغنا بالذل والعبودية .

فهل لاسرائيل ، لهذا العدو الخطر البغيض أعددنا هذا النظام وهذا الفساد وهذه الاخلاق .. وفي عقر دارنا يوجد عدونا القديم ، وهو يأبى في كل يوم الا انه يزداد تشبثا باحتلال بلادنا وباخضاعنا لسياسته ولنفوذه .. والشعب يريد الخلاص من هذا الاحتلال الجاثم ويريد التحرر ويريد الحياة .. فهل لهذا العدو الغاصب الفاجر أعددنا هذا النظام وهذا الفساد الذي يسمح بوقوع هذه الجرائم .

وفي مصر ملايين من افراد الشعب تريد نصيبها الحق في الحياة الكريمة فهل سبيلنا الى ذلك هو هذا النظام وهذا الفساد وهذا الانحلال .. فلنقف جميعا .. لنقف حكومة وشعبا . نوايا وشيوخا . رجالا ونساء . لنقف امام هذه الكارثة وقفة تدبر وامعان ولنختر لانفسنا أي الطريقين نريد ان نسلك . طريق الحياة أم طريق الفناء .. فاذا أردنا الحياة فليس أمامنا الا أن نحقق وأن نبحث عن المجرمين الحقيقيين الذين

وصلوا بالبلاد الى هذا الحد من التدهور • وما المجرم في نظرنا الا النظام الرأسمالي الذي يجعل أقواما من أصحاب الملايين لا يتورعون في كيفية الحصول عليها • ولا يتورعون في كيفية تبذيرها ••• ويجعل ملايين الشعب في حالة من الفقر والانسحاق بحيث لا يقيم لها حكامها أو أغنياؤها وزنا •• والاشتراكية هي العلاج •• والاشتراكية هي الطريق •• أما اذا أبت الحكومة الا ان تمضي في طريقها وكأنه لم يحدث شيء ولم يقع شيء •• اذا أبت الحكومة الا ان تنظر لما وقع ويقع نظرة قلة مبالاة وعدم اكتراث فمعنى ذلك أنها تقود البلاد الى الخراب والهاوية ولما كانت مصر لن تذهب الى الخراب والهاوية أبدا فلا يلومن ولاة الامور الا أنفسهم عندما يصرخ الشعب في وجوههم : اذهبوا وحدكم الى الخراب والهاوية • وليحي الشعب الى الابد حرا كريما أمينا نظيفا عاملا لا يختلس ولا يرتشي ولا يستهتر ولا يلعب القمار •

وليس ذلك الا على سبيل العينة مما امتلأت به جريدتنا الاشتراكية في ذلك الزمان ولم تكن الاشتراكية وحدها في الميدان فقد لاحقتها صحف ومجلات أخرى وزاد توزيع الجريدة الاشتراكية على مائة الف ثلاث مرات في الاسبوع ، ووقف القضاء وعلى رأسه مجلس الدولة برئاسة السنهوري باشا يؤيدنا ويشد أزرنا ، حقا كانت النيابة توجه لنا تهمة العيب في ذات الملك المرة بعد الاخرى وتحبسنا احتياطيا ، ولكن القضاء كان يسرع للافراج عنا لنواصل الحملة وهذا يدلك على الروح التي سادت مصر •

مقتل الملك عبد الله :

وكان الملك عبدالله ملك الاردن أول من أزيح من الطريق اذ قتل داخل المسجد الاقصى ، وتلاه انقلاب عسكري في سوريا اطاح بشكري القوتلي رئيس الجمهورية ، بينما قتل رياض الصلح رئيس وزراء لبنان ، ولم يلبث جمال عبد الناصر ان قام بحركته التي اطاحت بفاروق •

وهكذا دفع رؤساء الدول ثمن هزيمة فلسطين ، وكان مصير حكام

العراق الأمير عبد الاله ونوري السعيد اسوأ من الكل .

اما ماذا حدث خلال العشرين سنة التالية ، بعد ان اصبحت الحركات العسكرية هي المسيطرة فذلك مجاله جزء آخر من هذا الكتاب ، اذا شفاني الله من مرضي فأرجو أن أوفي هذا القسم من حياة العروبة وقضية فلسطين والذي انتهى بما أسموه « نكسة » وتتلخص هذه النكسة في ابادة سلاح الطيران المصري في بضع ساعات وتمزيق ما بقي من الجيش المصري في ستة ايام (على سبيل التجوز) . وسقطت فلسطين كلها بما فيها مدينة القدس ، وهضبة الجولان السورية ، وتوقفت قناة السويس بعد ان احتل اليهود ضفتها الشرقية وتحول مليون مواطن مصري هم سكان الضفة الغربية ومدن الاسماعيلية والسويس وبور سعيد الى مهجرين .

وانا اكتب هذه السطور في أواخر عام ١٩٧١ اي بعد مضي قرابة أربعة أعوام على هذه النكسة واللطيف انها صورت على انها انتصار ، ولست أريد أن أفيض الا بأمر الله ، فاذا هو شفاني كان ذلك ايذانا منه بأن اكتب الجزء الثاني والا فسوف يكتبه من غير شك من هم أقدر مني على كتابته ، والحمد لله رب العالمين .